دعوة الحق

سلسلة شهرية تصدرها
رابطة العالم الإسلامي
بمكة المكرمة

الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل

كتبها :
د. عبدالحليم عويس

السنة الحادية عشرة - العدد ١٢٧ - رجب ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م





بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

سيبقى دور الشباب الدور الأساس في بناء المجتمعات ، وفي تحقيق طموحاتها المستقبلية . وأبرز مايفتقده شبابنا المسلم افتقاده للنموذج ، وعدم ارتباطه – كما ينبغي – بالثوابت ، وخطه بين ما هو أصول ومقاصد شرعية وثوابت لا تقبل المساومة ، وما هو فروع تحتمل الرأى الآخر لتلبي تحديات متحركة تتغير من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان ، وهي تؤكد في النهاية بمرونتها صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ! !

وقد نسي بعض شبابنا – إن لم يكن أكثرهم – الواجبات ، وركزوا على الحقوق ، وتعاملوا مع الدول على أنها الأم التي تطعمهم وتكسوهم ، مع أن الأصل في جهاز الدولة أن يعيش هو على أكتاف الشعوب ، وان يكون موظفاً لديه . . . فالحقيقة أن علاقة الشباب بجهاز الدولة تحتاج إلى إعادة فحص وتقويم . . . وبالإضافة إلى ذلك فإن النظر إلى (الدولة) غلب على القضية الأهم وهي قضية (الدعوة) ، فالدولة – في منظور الإسلام – مجرد وسيلة للدعوة ولحماية الثوابت الإسلامية وما يتصل بأمن الناس داخلياً وخارجياً لكن الدولة أصبحت هدفاً لدى بعضهم حتى ولو لم تقم بحماية ثوابت الأمة وأصولها الحضارية وأمن الناس .

وفي ترتيب المسلم الواجبات لدى الشباب المسلم ، بل لدى كثير من الحركات الإسلامية غابت فروض الكفاية التي تحولت إلى فروض عين من أمثال (الزراعة) و(الصناعة) السلمية والحربية ، و(التكنولوجيا)

و(تأصيل العلوم الإنسانية) و(البدائل الإعلامية) و(النهج التربوي) وانشغلت كثير من العقول المسلمة بخلافات وصراعات وفروع وهيئات ماثبت لدينا ولا وصلنا أن صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام قد أعطوها هذه الأهمية ، ولا انشغلوا بها هذا الإنشغال ، وتكاد مساحاتها تكون هزيلة لدى السلف الصالح ، وألوانها تكاد تكون باهتة ، ومع ذلك فهي تلقى من بعض شبابنا تركيزاً وتكثيفاً .

– كما انه من الجدير بالتنويه أن دور المرأة المسلمة الدعوي والحضاري يحتاج إلى إعادة تأصيل . . فتهميش هذا الدور تنعكس آثاره على المرأة المسلمة المعاصرة ، ويؤثر على حقيقة مسؤوليتها الإجتماعية . .

●●●

وينقسم هذا البحث إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول عرض تاريخي علمي موثق للتجربة النموذج . . . تجربة شباب الصحابة وجهودهم في بناء المجتمع في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . . . وهي التجربة التي لا يجوز التفريط فيها وإلا تاهت الأمة في التاريخ ، والمساومة على ثوابت هذه التجربة تحت الدعاوي العلمانية والحداثية والتطورية مقامرة بحاضر الأمة ومستقبلها ، ولا يدعو إلى هذا مسلم بأي حال من الأحوال . .

أما القسم الثاني فهو عرض فكري لبعض القضايا الشبابية الملحة التي تهم الشباب المسلم في العصر الحديث . . وبالطبع فمن المجازفة إدعاء أن أي بحث يمكن أن يحيط بكل مشكلات الشباب في ضوء التعقيدات المعاصرة . . . وحسبنا أن نرصد بعض المشكلات الأساس ، لندعو إلى التمثيل الكامل للتجربة البشرية النموذج ، ولندعو – كذلك – إلى عرض ما يجد من مشكلات على معطيات هذه التجربة النموذج التي قدمتها لنا العناية الإلهية بواسطة بشر حقيقيين ، لكنهم أزكى بشر

عرفتهم الأرض بعد الأنبياء المعصومين . . .

- إنهم دعوا إلى الله . . .

- وإنهم أوذوا في سبيل الله . . .

- وإنهم زرعوا وصنعوا صناعات سلم وصناعات حرب . .

- وإنهم ساحوا في الأرض مجاهدين وتجاراً ورحالة . . وقد عاشوا الإسلام وواجهوا حضارتين أقوى بالمقاييس المادية والترفيّة منهم بكثير ، ومع ذلك انتصروا عليها وتفاعلوا معها وأخضعوها لحقائق دينهم ورسالتهم ولم ينسحقوا أمامها كما ينسحق - الآن - بعض المحسوبين على حضارة الإسلام . . .

وتبقى بعد ذلك الحقيقة الكبرى التي ألفت نظر الشباب إليها وهي قوله تعالى : ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً**﴾ (صدق الله العظيم)

د. عبدالحليم عويس



القسم الأول

الشباب المسلم وتجربة الماضي

شباب الصحابة وجهودهم
في بناء المجتمع في عهد الرسول ﷺ
(التجربة النموذج)

شباب الصحابة
وجهودهم في بناء المجتمع
في عهد الرسول ﷺ
(التجربة النموذج)

توطئة :

ليس من اليسير في المقاييس الإنسانية وضع جميع الناس في قوالب جامدة جامعة مانعة، وإنما الممكن أن يصنف الناس ، على حسب العرف الشائع والقواعد الأغلبية ، التي لا تخلو من شذوذ . . .

ومع هذا فقد تكون لبعض العصور في ظل قيم معينة وأوضاع فكرية ونفسية خاصة - خصائص لا تتوافر لعصور أخرى مترفة أو متخلفة أو فاقدة للدفعة الروحية والنفسية . . .

ومن هنا فإننا - في ضوء هاتين الملاحظتين - نقول : إن مقياس «الشباب» في عمر الإنسانية - إذا مانظرنا إليه بقدراته وعطائه وليس بمجرد الميزان الكمي الحسابي - قد يختلف من عصر إلى عصر آخر . . . ومن جماعة إلى جماعة . ونعتقد ان مقاييس عصرنا في حساب العمر الشبابي - مع اختلافها من بلد إلى بلد وفق الظروف الحضارية - فإنها - كذلك - قد لا تكون محكمة التطابق مع عصر الرسول ﷺ .

إنني عندما انظر في الأعمال التي قام بها بعض الغلمان والصبيان المسلمين ، وبعضهم في سن السابعة ، وانظر فيما يقوم به اطفال السابعة أو الثامنة في عصرنا - ألمح الفرق كبيراً بين العمرين العقليين ، وأري ضرورة ان نربط بين الوعي العقلي والفكري والنفسي ، وبين العمر الزمني الحسابي . . .

كما أرى ضرورة اعتماد النسبية ، واحترام الفروق بين العصور ، عند تقدير الأعمار ، ووضع الفواصل بين مراحل العمر . . طفولة أو شباباً أو رجولة كاملة . .

وكدليل لمصطلحات بحثي هذا فإنني - أمام روح عصر الرسالة الذي أدرس اسهامات الشباب فيه - أرى أن أحدد سن الشباب بتجاوز مرحلة الطفولة والصبا ، وبدون بداية حسابية وبنهاية العام الخامس والثلاثين من عمر الإنسان . . .

«اخرج الطبراني عن محمد بين علي بن الحسين رضي الله عنهم ان النبي ﷺ بايع الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر رضي الله عنهم وهم صغار ، ولم يبقلوا(١) ، ولم يبلغوا ، ولم يبايع صغيراً إلا منا»(٢) .

وأخرج الطبراني أيضاً عن عبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر رضي الله عنهما أنهما بايعا رسول الله ﷺ وهما ابناء سبع سنين ، فلما رآهما رسول الله ﷺ تبسم وبسط يده ، فبايعهما(٣) .

ونحن ندرك ان البيعة لا تقبل إلا ممن يعي شروطها ومسؤوليتها ،

---

(١) أي لم تنبت لحيتهم (بقل وجهه : نبتت لحيته) .

(٢) محمد يوسف الكاندهلوى : حياة الصحابة ١/ ٢٣٧ عنوان : «بيعة من لم يحتلم» دار المعرفة ، بيروت .

(٣) المكان السابق نفسه .

وأنها عمل خطير يوجه العمر كله في طريق محدد ، والنكث بها خيانة لله ورسوله . . ولو لم يكن الرسول ﷺ يدرك أهلية هؤلاء الصبيان المبايعين الذين لم يحتلموا لتحمل المسؤولية لما بايعهم فالبيعة - في نهاية الأمر - عقد بين مبايع (بالكسر) ومبايع (بالفتح) ويتأكد لنا هذا من سلوك الرسول ﷺ نفسه ، مع غلمان آخرين غير هؤلاء ، وفي أعمارهم الزمنية نفسها ، وقد حاولوا مبايعة الرسول ، لكن الرسول رفض بيعتهم . . . «فقد أخرج النسائي عن الهرماس بن زياد رضي الله عنه قال : مددت يدي إلى رسول الله ﷺ وأنا غلام يبايعني فلم يبايعني»(٤) . . . فالرسول ﷺ - من وحي خبرته بالفروق الذاتية العقلية والنفسية بين مجموعة المبايعين الذين ينتظمهم عمر زماني واحد قبل بيعة بعضهم ورفض بيعة آخرين . .

وقد أخرج ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : رد رسول الله ﷺ عمير بن أبي وقاص رضي الله عنه عن مخرجه إلى بدر ، واستصغره ، فبكى عمير رضي الله عنه ، فأجازه ، قال سعد رضي الله عنه : فعقدت عليه حمالة سيفه ، ولقد شهدت بدراً ، وما في وجهي إلا شعرة واحدة أمسحها بيدي (كذا في كنز العمال ٥/ ٢٧٠) . . وأخرجه ابن سعد عن سعد رضي الله عنه قال : رأيت أخي عمير بن أبي وقاص ، رضي الله عنه قبل ان يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى ، فقلت : مالك يا أخي ؟ قال : إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني ، وأنا أحب الخروج لعل الله ان يرزقني الشهادة . قال : فعرض على رسول الله ﷺ فرده ، فبكى ، فأجازه ، فكان سعد رضي الله عنه يقول : فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره ، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة (كذا في الاصابة ٣/ ١٣٥) ورجاله ثقات(٥) .

(٤) المرجع السابق ١/ ٢٣٨ .
(٥) الكاندهلوى : حياة الصحابة ١/ ٥٨٤ .

إننا عندما نقف عند هذا النص ، وماسبقه من نصوص ، نرى ان الشعور بالمسؤولية ودفعة الروح تتفوقان كثيراً على العمر الزماني ، ونرى ان الرسول ﷺ يقيس الأمور بهذا المقياس الروحي والعقلي ، أكثر مما يقيسها بالمقياس الحسابي .

ولئن كان التاريخ الإسلامي نفسه في عصر النبوة - كذلك - قد قدم لنا بعض النماذج الكبيرة في السن والتي تخاذلت في بعض المواقع - كموقعة تبوك - وتذرعت بحجج واهية للقعود عن الجهاد ، فإنه - في المقابل - قد قدم لنا نماذج كثيرة لصبيانٍ وشباب قد تنافسوا في الجهاد والعمل الإسلامي الإجتماعي والدعوي ، بقدر لم يستطع بعض الشيوخ ان يصلوا إليه .

فالعمر الزماني - هنا في عصر الرسالة بخاصة - مجرد مؤشر فقط ، لكنه من الصعب - بل لا يتحدد تحديداً علمياً - إلا إذا أضيف إليه الوعي الفكري والمستوى الروحي . . .

فإذا أضفنا إلى هذا موقف الرسول ﷺ من أسامة بن زيد ، وكيف أنه - لاعتبارات كثيرة على رأسها التعويض النفسي عما أصاب والده زيد ابن حارثة في مؤتة ، قد أنفذه قائداً لجيش مهمته تأديب ، الروم ، وأمره أن يتجه إلى الشام ، وأن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والدارون من أرض فلسطين ، وعندما رأى الرسول ﷺ تردد بعض الصحابة في الاستجابة لبعث أسامة ؛ نظراً لحداثة سن أسامة ، ولثقتهم في العمر الزمني وكأنه المقياس الأوحد . . خطبهم فبين لهم مقياسه هو ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس أنفذوا بعث أسامة ، فلعمري لئن قلتم في امارته لقد قلتم في امارة أبيه من قبله ، وانه لخليق للامارة ، وان كان أبوه لخليقاً لها »(٦) . . . إذا أضفنا حادثة أسامة هذه تجلى لنا مقياس الرسول عليه

(٦) سيرة ابن هشام (وفاة الرسول وبعث أسامة) والبخاري في كتاب المغاوي باب غزوة زيد بن حارثة . والنص هنا لابن هشام .

الصلاة والسلام في وزن الرجال . . والنظر إلى الموازين المختلفة التي تضع المقياس العام للمسؤلين . . فقد كان اسامة بن زيد من صغار الصحابة رضي الله عنهم ، حيث توفي رسول الله ﷺ وعمر اسامة ثمان عشرة سنة هجرية ، وقيل عشرين (فكأنها سبع عشرة ميلادية) ولكن صغر سنه لم يكف ليحول دون توليته الامارة ، بل ان المؤهلات الأخرى رجحت أحقيته للولاية ، ولولا ذلك لما غامر رسول الله بأرواح المسلمين في الجيش الذي مع أسامة ، بل لما غامر رسول الله بروح اسامة نفسه ، ولا بروح عمير بن أبي وقاص أخى سعد بن أبي وقاص . . .

ولقد أعطى الرسول عليه السلام - بهذا السلوك - المقياس العادل والكامل لمؤهلات المسؤولية والقيادة ، ومع أنه لا ينكر في هذا المقياس عامل الجسم ومايترتب عليه من قوة بدنية ، إلا ان العوامل الروحية والنفسية هي الأقوى والأرجح في وزن الرجال ! !

مصطلح التنمية في ضوء عصر الرسول :

بعد أن ألقينا الضوء - في ضوء روح العصر النبوي - على مصطلح الشباب ، نلقى الضوء في هذه الصفحات على مصطلح التنمية ، سواء في منطلقاته الثابتة ، أم في مرحلة التحديات التي واجهت عصر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبديهي أن للتنمية في الإسلام مفهومها ومعالمها الثابتة التي لا تختلف من عصر لعصر ، بيد ان بعض العصور تحتاج إلى التركيز على بعض الجوانب ، وقد يكون ثمة خلل وقع في مسيرة الأمة فتتكثف جهودها فيه - مرحلياً - حتى تتم معالجة جوانبه ، وإحداث التوازن بينه وبين بقية الجوانب المادية أو المعنوية أو الأخلاقية .

ومن ثم تدخل التنمية مرحلة الشمولية والتوازنية في تلبية كل الاحتياجات على قدم المساواة . . .

فإذا جئنا لإلقاء بعض الضوء على مفهوم التنمية - بمفهومها الثابت ومعالمها الثابتة - في الإسلام ، فإننا نبدأ برفض أكثر المفاهيم المادية والجزئية المعاصرة للتنمية ! !

فمن الشائع أن بعضهم يتحدثون عن التنمية - وكأنهم يتحدثون عن التطور الاقتصادي ، وعن وسائل تحقيق الرفاهية في هذه الحياة .

وفي التصور الإسلامي يتجاوز معنى التنمية هذا الإطار العاجز المحدود ، فليس بالاقتصاد وحده تتحقق السعادة ، وليست الرفاهية مجرد إشباع لطلبات الجسد ، بل إن لطلبات الروح والعقل أهمية عظمى لا تقل عن النواحي المادية في الحياة .

وفي العالم الإسلامي انحرافات كثيرة في تصورات التنمية ، فالعنصر العقيدي والإنساني والأخلاقي ، وبعث روح الحضارة الإسلامية في الكيان الإسلامي . . هذا العنصر يكاد يكون غائباً عن بعض الذين يرسمون خطط التنمية ، وبالتالي كثيراً ما تبوء خطط التنمية بالفشل .

إنهم ينطلقون من معادلات خاطئة أو معكوسة . فهم يظنون أن المعادلات الإقتصادية هي كل شيء ، ويتجاهلون الإنسان الذي يحول هذه المعادلات إلى واقع متحرك ، وهم - في حين آخر - يظنون أن توفير الماديات كفيل بصناعة الإنسان والحضارة ، بينما الأمر بالعكس ، فالإنسان بفكره هو الذي يصنع الماديات ، وقد توجد الماديات ولا يوجد الإنسان المفكر المتحضر . . فالفكر قبل المادة .

ومن هنا وجب أن تكون خطط التنمية أصلية وشاملة ، ومتوازنة ، ويجب أن تكون كذلك - مهمته بالدرجة الأولى ببناء الإنسان ، بعقيدته

الدافعة وأخلاقه الضابطة ، وتصوره السليم للحياة ، وارتباطه بخشية الله ومراقبته . فخشية الله هي (صمام الأمان) لكل خطة تنمية وهي فوق كل الضوابط والدوافع والزواجر والقوانين ، ودائماً يبقى دليل أي خطة تنمية ناجحة في العالم الإسلامي ، تلك الآية الكريمة من كتاب الله : **﴿ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾** وأيضاً - قوله تعالى : **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾** .

ويقصد بالتنمية العمل على النموّ عن طريق احداث تغيير اقتصادي واجتماعي يصل إلى الأفضل ، وينقل الفرد والمجتمع إلى مرحلة حضارية متقدمة ، والتنمية ترتبط بالتغيير ؛ لكن هذا التغيير يقتصر - في بعض خطط التنمية - على الناحية الإقتصادية .

وهدف التنمية في الإسلام هو الإنسان القادر على أداء الأمانة ، وعلى إسعاد نفسه ومحيطه الصغير وأمته الإسلامية في حدود طاقته وإمكاناته ، وهذا الإنسان نفسه هو الوسيلة الأساسية للتنمية ، فهو المرعى وهو الراعي ، وهو وسيلة الإنتاج وهدف الخدمات ، فمن أجله تقوم وزارات التعليم والصحة والمواصلات والإعلام ، وعلى أكتافه تقوم الزراعة والصناعة والتجارة .

فهو دور متبادل ومزدوج ، وحق يأخذه صغيراً ، وواجب يعطيه كبيراً .

وهذا يؤكد ان مبدأ الشمول في التنمية الإقتصادية الإسلامية يقتضي ان تضمن التنمية كافة الاحتياجات البشرية من مأكل وملبس ومسكن ونقل وتعليم وتطبيب وترفيه ، وحق العمل وحرية التعبير في حدود النظام الإسلامي وممارسة الشعائر الدينية ، بحيث لا تقتصر التنمية على

إشباع بعض الضروريات أو الحاجيات دون الأخرى ، وهذا في الإطار الإسلامي التكاملي العام .

ومن هنا لا يقبل الإسلام بتنمية (رأسمالية) تضمن حرية التعبير ، ولا تضمن لقمة الخبز ، كما لا يقبل تنمية (اشتراكية) تضمن لقمة الخبز وتقتل حرية التعبير .

إن مبدأ التوازن في التنمية الإقتصادية والإسلامية يقضي أن تتوازن جهود التنمية ، ومن ثم فإنه لا يقبل في الإسلام أن تنفرد بتنمية المدن دون القرى ، أو أن تستأثر الصناعة بالتنمية دون الزراعة ، أو أن تقدم الكماليات أو التحسينات على الضروريات أو الحاجيات ، أو أن تسبق الصناعات الثقيلة أو المستوردة الصناعات الاستهلاكية أو المحلية . أو أن يركز على البناء والتشييد دون توفير المرافق العامة والتجهيزات الأساسية .

ومهما يكن الأمر ، وفي ضوء ما ذكرنا وما تسمح به هذه الصفحات، فإننا نوجز أهم معالم التنمية في المفهوم الإسلامي - في العناصر التالية :

أولاً : إن الإسلام يحث على التنمية الإقتصادية والإنتاج بجميع وسائل الإنتاج ، وفي جميع الحقول الزراعية والصناعية والتجارية، وبجميع أنواع الاستثمار المشروع .

ثانياً : إن الإسلام جعل ضوابط للتنمية فحدد طرق الكسب المباحة ووضح طرق الكسب الحرام .

ثالثاً : إن الإسلام أباح للإنسان أن يستفيد من آثار التنمية للإنفاق لتلبية حاجاته الأساسية والتمتع بالطيبات ضمن ضوابط الإسلام في الإستهلاك المباح ، شريطة أن لا يكون فيه سرف أو ترف ، أو شح أو كنز .

رابعاً : إن معنى الرفاهية لا يقتصر على المأكل والمشرب والملبس والمسكن فحسب ، ولكن يشمل جميع الحاجات التعليمية والصحية والأمنية وغيرها .

خامساً : إن مستوى الإنفاق يكون حسب المستوى الإقتصادي وحسب التنمية ، فقد تكون الحاجة في زمن ما كزمن الرسول ﷺ إلى بيت متواضع أو إلى ناقة وبيت شعر ، وقد تكون المطالب في زمن آخر أكثر من زمن الرسول كما هو في زمننا هذا .

سادساً : إن التزام الحد الأدنى في الاستهلاك أمر يحث عليه الإسلام، حتى لا يطغى ولا يبطر الإنسان بالنعمة ، ولكنه في الوقت نفسه يبيح للإنسان أن يتمتع بالطيبات ، ولا يرضى بالزهد الأعجمي من الإعتزال والتقشف : ﴿ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم﴾(٧) كما لا يرضى بالإنكباب على الشهوات : ﴿ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾(٨) .

سابعاً : لا يمنع الإسلام من الادخار للحاجة ولمواجهة احتمالات المستقبل ، ولا يتعارض هذا مع طلب الإنفاق .

ثامناً : يجوز لولي الأمر ان يتدخل لطلب الاعتدال في الإنفاق أو ما يسمى بترشيد الاستهلاك ، وذلك بالترغيب وسنّ القوانين والحجر على السفيه المبذر ، وبجباية الزكاة وإنفاقها في المصارف المقررة ، لتحقيق التنمية في مصرف الغارمين وفي سبيل الله ، وتحقيق الرفاهية للفقراء والمساكين وغيرهم .

---

(٧) الحديد ٢٧ .

(٨) الإسراء ٢٧ .

خصائص التربية في عصر الرسول :

فإذا جئنا لتحديد مفهوم التنمية وتحديد الأولويات التي كانت تفرضها مرحلة الرسالة ، فأن مما لا شك فيه عندنا أنه من خلال حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته في مكة والمدينة المنورة ، بما اكتنف مسيرته من تربية للفرد ، وتربية للجماعة ، وإقامة لكيان الدولة ، وجهود في نشر الدعوة داخل الجزيرة وخارجها .

مما لا شك فيه عندنا أن المؤشر الأكبر الذي نلمحه في هذه التنمية أنها قامت على أساس (بناء الإنسان) الفرد ، المؤهل للقيام بكل المهام التي توكل إليه لبناء الحضارة المختلفة من روح وعقل وثمار للعقل مادية ومعنوية ، في الزراعة أو الصناعة أو الثقافة أو الأخلاق ومنهج الحياة .

وإذا كانت خطط التنمية المعاصرة - بمفهومها العلمي - تقوم بها دول ، وتخطط لها وزارات . . . فالمؤشر الثاني في تنمية الرسول ﷺ للشباب أنها تنمية قام بها (فرد) لا يملك أية وسائل مساعدة ، ولا أية إمكانات أرضية منظورة . . . إنه يملك الوحي الذي يأتيه من السماء وحسب . . .

وهو بهذا الوحي ، وبدون مساعدة خارجية يملكها - يصنع الرجال . . . وينشيء جيلاً من المؤمنين الربانيين المبدعين .

ولمدة طويلة كان القرآن بإعجازه التربوي والنفسي والوجداني والعقلي هو وحده السلاح الذي يملكه الرسول عليه الصلاة والسلام ! !

●●●

والمؤشر الثالث في تنمية الرسول للشباب والأمة . . ان الأفراد الذين يبنيهم الرسول عليه الصلاة والسلام (بالكلمة) - قرآناً وسنة - و(بالفعل) ممثلاً في سلوكه هو وقدوته وسبقه المسلمين لتطبيق كل ما

يأمرهم به . . المؤشر الثالث أن هؤلاء الأفراد لايحظون برعاية دولة توفر لهم الوسائل المادية للتنمية وحسب ، بل انه من المطلوب منهم ان يبنوا هم دولة . . وان ينشروا دعوة . . وان يصنعوا حضارة . .

وفي هذه الحالة ، فقد كان من الضروري أن يكون بناء هذا الإنسان . . المجرد تقريباً من كل الوسائل المادية لمدة طويلة ، والذي تواجهه عواصف كثيرة . . . من الضروري أن يكون بناء هذا الإنسان (عقدياً وفكرياً ومعنوياً وخلقياً) قوياً ومحكماً ، بحيث يتجاوز كل هذه العوامل وينتصر عليها ، وبحيث يجد في نفسه التعويض ، وفي قيمه البديل والعزاء .

وعندما تتوافر لهذا الإنسان الطاقات المادية الصالحة ، فإنه سيكون جاهزاً تماماً ، مشحوناً بالوقود الكافي ، ليبني الدولة ويصنع الحضارة . . ولهذا فما كاد الرسول عليه الصلاة والسلام يجد الأنصار ، وينتقل إلى دار الهجرة ، ويبدأ في بناء الدولة ومؤسساتها الفكرية والإجتماعية والإقتصادية حتى يظهر الإنسان - مهاجراً أو نصرانياً - قدرته على التضحية والإيثار والالتحام مع الآخرين عبر أعظم أخوة عرفها التاريخ ، أخوة الإسلام ، التي آخى بها الرسول عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين الطارئين ، والأنصار أهل الديار ، فالتحموا التحاماً لم يعرف التاريخ مثله ، واستحق الأنصار - رضي الله عنهم أجمعين - هذا الوسام الإلهي ، حيث أنزل الله في القرآن قوله تعالى : **﴿والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**(١) .

وقد بدأ يتطور (مع الانتقال من مرحلة بناء الفرد إلى مرحلة البناء -

---

(١) الحشر آية ٩ .

بهذا الفرد – للدولة والحضارة والدعوة) مفهوم التنمية ، فمع الحفاظ – كمعلم دائم – على خط بناء الفرد – فإن التنمية الاقتصادية والاجتماعية زراعية وتجارية وصناعية – بأسلوب جماعي يخدم الدولة الناشئة – قد أخذت تشق طريقها في ظل الضوابط التي وضعها الاسلام للكسب الحلال والاستهلاك المباح والمسؤولية الاخلاقية والاشباع المتوازن لحاجات الجسد والعقل والروح . . .

في المرحلة المكية وقبل الهجرة كانت دار الأرقم بن الأرقم هي مؤسسة التنمية الأولى . . إنها مصنع الرجال الذين سينشرون الإسلام ويبذلون من أجله كل شيء . . . وفي المرحلة المدنية ، بعد الهجرة ، انتقل المسلمون من مرحلة (الفردية) إلى ميلاد (الجماعة) الإسلامية الأولى في التاريخ البشرية في ١٦ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة (٢٠ سبتمبر ٦٢٢م) وأنشأ الرسول ﷺ المسجد ، الذي أصبح المؤسسة الدينية والإجتماعية والثقافية للجماعة، وفي المسجد كان الرسول ﷺ يجتمع وأصحابه ؛ «ليصرف معهم شؤون الجماعة الناشئة ، ثم وضع – بالتفاهم مع صحابته أيضاً – المواد الرئيسية الأولى لدستور الجماعة السياسي (. . .) وترك الدستور بعد ذلك مفتوحاً ليضاف إليه من الفقرات ماتمس إليه الحاجة ، وماتدعو إليه ضرورات تطور الجماعة من تقنين وتنظيم .

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى في ١٣ ربيع الأول سنة ١١هـ (٦ يونيو ٦٣٢م) كانت الجماعة الإسلامية قد شملت شبه الجزيرة العربية كلها ، ودخل فيها جميع أهلها ، وكان الرسول ﷺ يسوس هذه الجماعة بتطبيق شريعة الإسلام تطبيقاً دقيقاً ، وبالسير على منهج واضح سليم يعتمد على تمثل الاسلام تمثلاً تاماً ، وعلى العدالة والاخلاص المطلق وفهم الطبيعة البشرية والصبر على الناس والعمل الدءوب وقوة

الشخصية مع هيبة النبوة في القلوب ، ضارباً للناس بخلقه وسلوكه وتصرفه القدوة في كل شيء(٢) .

●●●

وهكذا نجد التطور في مفهوم التنمية ، لكنه تطور قام ، وبقى مستمراً ، على ثوابته التي لا تتغير ، وهي ان (الإسلام) هو روح التنمية وضميرها ، ووسيلتها الفعالة لايجاد العقل المبدع والجسد الصحيح القادر على العطاء ، كما ان (الفرد) المؤمن القوي هو الوسيلة الوحيدة والصحيحة لتكوين مجتمع قوي . . وان تجاوز بناء الفرد عمل مصيره الانهيار لخطط التنمية كلها . . و«الشريعة» منهج ضامن لسلامة التنمية ، و«الأخلاق» التي تلزم بالايثار والتضحية والسمو هي صمام الأمان لسلامة الوسائل المحققة للأهداف . .

شباب الصحابة موجودون في كل الطبقات :

من الخصائص الدينية والتاريخية العظمى لحياة الرسول ﷺ أنها نموذج كامل يستطيع كل الناس في كل مراحل أعمارهم ومختلف ظروفهم وثقافاتهم ان يتأسوا به .

انهم واجدون فيه المثل الأعلى والقدوة الحسنة في كل أمورهم ، ومهما كانت حالاتهم . . .

فالطفل يستطيع ان ينظر في طفولة الرسول عليه السلام ، وفي معاملته لأطفاله ، وأطفال المسلمين . . .

واليتيم يجد فيما عرض لحياة الرسول من يتم ومعاناة سلواه ومثله

(٢) د. حسين مؤنس : عالم الإسلام : ص ٦٧ نشر الزهراء للاعلام العربي ١٤١٠ .

الذي يتأسى به . . .

والفقير والغني . . والشاب . . والرجل . . والزوج . . كل هؤلاء يجدون في حياة الرسول مايحتاجون إليه ليقيسوا عليه ويتأسوا به .

«واعظم من الأسوة في اعمال الإنسان الظاهرة : الأسوة فيما يتعلق بخطرات القلوب ومجالات الفكر ونزعات العواطف (. . .) فلابد للإنسان من امام تكون له فيه الأسوة التامة في هذه الأمور فيأتم به في قهر هذه القوى الثائرة والعواطف المتوثبة إلى ان تسكن ثورة نفسه ويسلك في ذلك مسلك قدوته الأعظم وهو النبي ﷺ[٣] . . .

وهذه الخطرات القلبية والفكرية والعاطفية تتلبس بالشباب أكثر مما تلبس بغيرهم ، وهي عند الشباب أقوى أثراً وأكثر ثورة وبروزاً ، ومن هنا فإن حاجة الشباب إلى الأسوة العملية الحسنة ، في عالمي السلوك الظاهري والنزعات العاطفية والداخلية - حاجة ماسة وملحة ، وبدونها ينحرفون عن الطريق القويم في الفكر والسلوك .

ومنذ بعث الرسول ﷺ وللشباب حضور قوى في دعوته وتربيته ، وفي نشر الإسلام بين أقطار الأرض بالوسائل السلمية ، وبالوسائل الحربية عندما يفرض خصوم الدعوة عليها اللجوء إلى القوة . . .

وإذا كان العلماء قد قسموا الصحابة إلى طبقات كثيرة ، بادئين بمن تقدم اسلامه بمكة ، ثم أصحاب دار الندوة بعد اسلام عمر ، ثم المهاجرة إلى الحبشة ، وأصحاب بيعة العقبة الأولى ، وأصحاب بيعة العقبة الثانية ، ثم المهاجرين إلى المدينة قبل بناء المسجد ، ثم أهل بدر ، ثم المهاجرين بين بدر والحديبية ، ثم أهل بيعة الرضوان ، ثم المهاجرين بين الحديبية وفتح مكة . . ثم مسلمة الفتح ، ومن ثم من جاء بعد الفتح

(٣) السيد سليمان الندوي المتوفي في الهند سنة ١٣٧٣م (١٣٥٣هـ) : الرسالة المحمدية طبع دار المصنفين بأعظم كره ١٤٠٢ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

من القبائل والأعراب (ويدخل فيهم الصبيان الذين رأوا الرسول ﷺ)
. .

إذا كان العلماء قد قسموا الصحابة إلى هذه الطبقات ، فإننا نستطيع أن نقول مطمئنين : إن كل هذه الطبقات لم تخل من الشباب . . فلقد كان من الشباب من أسلم مع السابقين في الإسلام ، وكان منهم من هاجر إلى الحبشة ، ومن بايع في العقبة ، ومن هاجر إلى المدينة ، وهكذا . . !!

شباب مبشرون بالجنة :

كان من بين العشرة المبشرين بالجنة خمسة شباب بارزون ، فالإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه ولد في العام الثالث والعشرين قبل الهجرة واستشهد في العام الأربعين بعد الهجرة (٦٠١ - ٦٦١م) أي انه عاش شبابه كله في فترة إقامة الدعوة وبناء دولة الإسلام ، وقد قام بجهد عظيم منذ أسلم (رضي الله عنه) وكان أول من أسلم من الصبيان في تاريخ الإسلام(٤) . وكان عمره حين أسلم عشر سنين ، وحين هاجر ثلاثاً وعشرين سنة ، وحين توفى الرسول ﷺ ثلاثاً وثلاثين ، وحين استشهد (رضي الله عنه) ثلاثاً وستين سنة .

وكانت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مواقف رائعة في الذود عن الإسلام منذ صغره وعلى امتداد سنوات شبابه !!

- أخرج ابن جرير من طريق ابن اسحاق عن عروة وعبدالله بن كعب ابن مالك الأنصاري رضي الله عنهما قالا : لما كان يوم الخندق خرج عمرو بن عبد وُدٍّ معلماً ليرى مشهده . فلما وقف هو وخليله قال له

(٤) طبقات ابن سعد : تراجم على وسعد .

على : ياعمرو ! إنك قد كنت تعاهد الله لقريش ، ألا يدعوك رجل إلى خلتين إلا اخترت احداهما . قال : أجل . قال : فإني ادعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام . قال : لا حاجة لى في ذلك فإني أدعوك إلى المبارزة . قال : لم يا ابن أخي ؟ فوالله ! ما أحب أن أقتلك . قال على رضي الله عنه : ولكني والله أحب أن أقتلك . فحمى عمرو عند ذلك . وأقبل إلى على رضي الله عنه فتنازلا ، فتجاولا : فقتله على رضي الله عنه(٥) وإلى جانب على بن أبي طالب من العشرة المبشرين بالجنة يأتي سعد بن أبي وقاص المولود في السنة الثالثة والعشرين قبل الهجرة والمتوفي في السنة الخامسة والخمسين بعد الهجرة (٦٠٢ - ٦٧٥م) . . وهو بطل معروف ، ومن المبشرين بالجنة ، وقائد القادسية ، وأول من أسال دماً للأعداء في الإسلام . . . وهو ثالث ثلاثة سارعوا إلى الإسلام بإقناع أبي بكر رضي الله عنه لهم(٥) .

ومن العشرة المبشرين بالجنة - أيضاً - سعيد بن زيد المولود سنة (٢٢ قبل الهجرة) والمتوفي سنة (٥٠هـ) (٦٠٠ - ٦٧٠م) .

وقد كان سعيد بن زيد ، وزوجته أم جميل بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب من السابقين الأولين الذين سارعوا بالدخول في الإسلام. . . وقد شهد سعيد الغزوات كلها مع الرسول ﷺ عدا غزوة بدر ؛ إذ كان الرسول قد بعثه مع طلحة بن عبيد الله ليأتينا له بخبر قريش ، فلما رجعا وجدا رسول الله قد انتهى من غزوة بدر وانتصر ، ولكنه عليه السلام - لأنهما كانا يقومان بمهمة متصلة بالغزوة - ضرب لهما بسهمين ، فكانا كمن شهد بدراً . .

(٥) طبقات ابن سعد : انظر تراجم على وسعد وانظر د. سيد الجميلي العشرة المبشريون بالجنة دار الكتاب العربي ، بيروت ط ١/ ١٤٠٤ من ١٠١ ، ١٤٥ ، وانظر سليمان الندوي : الرسالة المحمدية طبع الهند ص١٥٣ .

(٦) سيد الجميلي : العشرة المبشرون بالجنة ص١٥٧ .

ومن العشرة المبشرين بالجنة - وقد وهب شبابه للإسلام أيضاً - :

الزبير بن العوام رضي الله عنه (٢٨ ق هـ - ٣٦ هـ) (٥٩٦ - ٦٥٦م) . . وقد كان إسلام الزبير بن العوام مبكراً فكان من السبعة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام ، وكان عمره يوم أسلم خمس عشرة سنة ، ولمهارته في الحرب والجهاد أطلق عليه المؤرخون عبارة : (أول سيف شهر في الإسلام كان سيف الزبير) . . والزبير من الصحابة الذين لم يسجدوا لصنم قط ، ولم يأت فعلاً مشيناً من أفعال الجاهلية . .

وقد أخرج أبونعيم في الحلية (جـ ١ ص ٨٩) ونقله عنه الكاندهلوى(٧) في حياة الصحابة - عن أبي الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين وغادر وهو ابن ثمان عشرة سنة ، وكان عم الزبير يعلقه في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول : ارجع إلى الكفر . فيقول الزبير : لا أكفر أبداً وأخرجه الطبراني أيضاً .

وفي غزوة أحد بعد أن انقلب جيش قريش قافلاً إلى مكة ندبه الرسول ﷺ وندب معه أبابكر ليتعقبا جيش قريش ، حتى يروا أن بالمسلمين قوة فلا يفكروا في استئناف القتال . . وقد قاد الزبير سبعين رجلاً في اتجاه جيش قريش فظنت أنه طليعة جيش كبير ، فمضت فى طريقها لا تلوى عن شيء(٨) .

وفي موقعة اليرموك - كان موقف الزبير رائعاً ، فعندما رأى الزبير المسلمين يتقهقرون شد على الكفار صائحاً : الله أكبر ، وناله منهم أذى إلا أنه أدار الدائرة عليهم(٩) .

وكان طلحة بن عبيد الله من المبشرين بالجنة - أيضاً - وقد أعطى شبابه للإسلام ، ومن الطريف أنه ولد في العام نفسه الذي ولد فيه الزبير

---

(٧) الكاندهلوى ١/ ٢٦٨ .	(٨) سيد الجميلي : المرجع السابق ١١٩ .

(٩) وردت الرواية في البخاري ، وانظر : المرجع السابق ١٢٩ ومابعدها .

ابن العوام ومات معه - أيضاً - في عام واحد (٢٨ ق هـ - ٣٦هـ) . . وقد ارتبط اسم كل منهما بالآخر ، فيقال ، طلحة والزبير ، مثلما يقال أبوبكر وعمر (رضي الله عنهم جميعاً) .

وفي غزوة أحد كان لطلحة القدح المعلى ، لدرجة أن أبابكر رضي الله عنه كان يقول إذا ذكر يوم أحد : ذاك يوم طلحة!! فعندما انهالت السيوف على رسول الله - فداه أبي وأمي - في ساعة الشدة تقدم طلحة لا يأبه بشي فضم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى صدره ، وأمسك سيفه بيمناه وأخذ يقاوم جحافل المشركين حتى ردهم عن رسول الله وأيأسهم منه ، وقد أصيب طلحة ببضع وسبعين طعنة وضربة ، ولكنه ثبت لها كالجبل الشامخ رضي الله عنه(١٠) .

وكان طلحة من أجود الناس بماله على الإسلام ، وقد كان يفرق ماله كله على المسلمين ، ثم ينميه الله له حتى يعود كثيراً كما كان ، فكانت كثرة ماله تؤرقه وتزعجه . . وفي ذلك تقول زوجته سعدى :

دخلت على طلحة يوماً فرأيته مهموماً ، فسألته : ماشأنك؟

فقال : المال الذي عندي قد كثر حتى أهمني وأكربني . . . فقلت له : ماعليك : اقسمه . . . فقام ودعا الناس ، وأخذ يقسمه عليهم حتى ما بقى منه درهم(١١) .

●●●

هؤلاء شباب اربعة من العشرة المبشرين بالجنة كانوا دعائم من دعائم دعوة الإسلام ودولة الإسلام . . . وهم لم يبشروا بالجنة لحسب ولا نسب ، بل بشروا بها لأعمال عظيمة قاموا بها قبل البشارة بالجنة وبعدها

(١٠) الجميلي : المرجع السابق ص ١١٩ .
(١١) الجميلي : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

. . . وماينطق - عليه السلام - عن الهوى . . ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ . .

ومعروفة وكثيرة هي أيادي المبشرين بالجنة ، وقد كتبت عنهم كتب كثيرة ، بل كتبت عن كل منهم كتب مستقلة ، معروفة ومتداولة . . .

وقد وصف ابن عباس رضي الله عنه طلحة والزبير بعد موتهما فقال : «رحمة الله عليهما كانا والله مسلمين مؤمنين بارين تقيين خيرين فاضلين طاهرين»(١٢) . .

والحق ان هذه الصفات الكريمة لا تقف عند طلحة والزبير وإنما تنطبق على كل المبشرين بالجنة شبابا وشيوخاً ، رضي الله عنهم أجمعين .

اسهام شباب الصحابة في الدعوة ونشر الإسلام :

عندما يذكر شباب الدعوة من الصحابة رضي الله عنهم يقفز اسم مصعب بن عمير رضي الله عنه على أساس أنه أكبر داعية شاب توافرت له كل وسائل الدعوة من اخلاص وحكمة ووعي وتضحية وثقة فيما عند الله .

أليس بفضل مصعب دخل الإسلام المدينة المنورة حتى لم يبق بيت من بيوتها إلا وفيها مسلمون ، بعد أن كان عدد المسلمين فيها لا يتجاوز المائة(١٣) . وكان مصعب يسمى في المدينة «المقرىء» ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام بعثه مع من بايعوا بيعة العقبة الأولى ، وأمره ان يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فنزل المدينة على

(١٢) المسعودي : مروج الذهب ، ولنلاحظ ان المسعودي ذو ميول شيعية ومع ذلك فإنه يورد هذه الحقائق عن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام .

(١٣) نعتقد هذا من عدد أهل العقبة الأولى والثانية ، إذ كان عدد من بايع في العقبة الأولى اثني عشر رجلاً وفي الثانية ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين .

أسعد بن زرارة ، وكان يصلي بهم(١٤) .

وقد نجح مصعب في جذب سادة الأوس والخزرج للإسلام ، فقد أسلم سعد بن معاذ وأسيد بن خضير سيدا عبد الأشهل من الأوس، عن آخرهم باسلامهما وذلك بفضل تلطف مصعب في الدعوة، واستعماله الحكمة .

وقد بذل مصعب شبابه كله وثراءه وجاهه للإسلام ، وقد كان (رضي الله عنه) يلبس قبل اسلامه الديباج الثمين والحرير الفاخر ، ونشأ في حجر النعيم والشرف وتقلب في بحبوحة العيش ورغده ، ثم لبس في الإسلام المسوح والخشن من الثياب المرقعة ، ولما استشهد في سبيل الله لم يكن له ثوب ضاف يستر جسده كله فاضطروا عند دفنه إلى ان يغطوا قدميه بالحشيش(١٥) .

ويقول خباب بن الأرتّ – وهو من شباب الدعوة الأول – : لقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجل رجله على صدري ، فما اتقيت برد الأرض ، إلا بظهري ، ثم كشف عن ظهره، فإذا هو قد برص(١٦) .

وكان من شباب الدعوة الذين عاشوا آلام البداية عمار بن ياسر الذي أوذي في سبيل الله كثيراً وتحمل ما أصاب أمه سمية وأباه حتى ماتا من التعذيب . . بصبر وثبات . وقد كان عمار يجندل على الأرض ويضرب ضرباً مبرحاً وهو صابر محتسب .

---

(١٤) سيرة ابن هشام (بيعة العقبة الأولى) .

(١٥) سيرة ابن هشام بيعة العقبة الأولى والثانية ، وانظر سليمان الندوي الرسالة المحمدية ص١٥٦ ، وانظر : ابوالحسن الندوي : السيرة النبوية ص١٢٥ دار الشروق ، السعودية وانظر : أحمد الشرباصي : الفداء في الإسلام ٢/ ٤٠٥ نشر دار الجيل ببروت ١٤٠٣هـ وانظر الكاندهلوى ١١ حياة الصحابة ١/ ٢٥٣ .

(١٦) وأخرجه الحاكم والبيهقي بنحوه .

ومن النماذج الفتية الرائعة التي تجسدت فيها القدوة الصالحة ، نموذج معاذ بن عمرو بن الجموح ، وصاحبه معاذ بن عفراء رضي الله عنهما في غزوة بدر . . فقد أخرج الشيخان عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : إنني لواقف يوم بدر في الصف ، فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما ، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما ، فغمزني أحدهما فقال : ياعماه أتعرف أباب جهل ؟ فقلت : نعم ، وماحاجتك إليه ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده ! لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك ، فغمزني الآخر فقال لي أيضاً مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس . فقلت : ألا تريان هذا صاحبكم الذي تسألاني عنه؟ فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه . فقال : أيكما قتله؟ قال كل منهما : أنا قتلته قال : هل مسحتما سيفكما؟ قالا : لا . قال : فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال : كلاهما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء رضي الله عنهما(١٧) .

وفي الهجرة إلى الحبشة وجد شباب أحسنوا ترجمة حقائق الإسلام فكرا وسلوكاً ، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه . . . وقد ختم حياته بالإستشهاد في وقفة بطولية رائعة في معركة مؤتة . .

وفي السنة العاشرة للهجرة أرسل الرسول ﷺ إلى أهل نجران بعد أن أسلموا شاباً في السابعة عشرة من عمره ليفقههم في الإسلام ويكون والياً عليهم ، وهو عمرو بن حزم الأنصاري(١٨) الذي بقي على ولاية نجران طيلة حياة الرسول ﷺ - ومن شباب الصحابة وأعلامهم معاذ بن جبل

---

(١٧) الكاندهلوى ١/ ٥٣٩ ، ٥٤٠ .

(١٨) الطبري ٣/ ١٢٨ .

ابن عمرو من أوس من جشم بن الخزرج ، وأمه هند بنت سهل من جهينة ، وشهد معاذ العقبة مع السبعين من الأنصار ، وشهد بداراً وهو ابن عشرين أو إحدى وعشرين سنة ، وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن عاملاً ومعلماً وقبض رسول الله ﷺ وهو باليمن ، واستخلف أبوبكر وهو عليها على الجند ، ثم قدم فوافي عمر عامئذ على الحج ثم خرج معاذ إلى الشام مجاهداً في سبيل الله(١٩) .

ويضاف إلى هذا الموكب الشبابي المؤمن الذي أقام بناء الدعوة حرام ابن ملحان وأصحابه التسعة والستون الذي كان أغلبهم من الشباب والذين قتلوا جميعاً إلا كعب بن زيد في ديار الغربة عند (بئر معونة) بأيدي أعراب من عصية وذكوان بن وعل . . ويضاف إليهم الستة الذين استشهدوا في يوم الرجيع ، ومنهم عاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدى وزيد بن الدثنة . . . وقصتهم معروفة شائعة . . .(٢٠) .

- وقد أجاز الرسول ﷺ عبدالله بن عمرو بن الخطاب ، للجهاد يوم الخندق ، وكان عمره خمسة عشر عاماً . . .

- وقد اسلم البراء بن عازب الأوسي صغيراً ، إذ كان في الثالثة عشرة من عمره ، وحفظ طائفة من سور القرآن قبل قدوم الرسول ﷺ للمدينة ، وقد شارك في غزوة أحد . . . وقد ندبه الرسول ﷺ لدعوة همدان للإسلام فبقى هناك حتى أسلمت همدان كلها . .

- ومن الصحابة الشباب زيد بن أرقم الذي نشأ يتيماً في حجر الشهيد عبدالله بن رواحة رضي الله عنه ، وكان من كتاب الوحي ، وقد

(١٩) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٧/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

(٢٠) انظر موقعة بئر معونة في سيرة ابن هشام ، وانظر سليمان الندوي : الرسالة المحمدية ص ١٥٦ ومابعدها

غزا سبع عشرة غزوة ، وردَّه الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة أحد ، لكنه جمعة مع أقرانه الشباب في فرقة لحراسة المدينة ، وقد وقف موقفاً جريئاً ضد عبدالله بن أبي زعيم المنافقين عندما هزأ بالرسول ، وأخبر الرسول بما قال ، ونزلت سورة «المنافقون»(٢١) .

– ومن شباب الصحابة رافع بن حديج ، وقد اشترك في غزوة أحد، ولم يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، لأنه كان يجيد الرمي ، كما كان مجيداً لأعمال الفلاحة ، وشق الأرض جامعاً بين أمور الدين والدنيا(٢٢) .

– ومنهم سمرة بن جندب ، وقد شارك في غزوة أحد ، بعد أن تصارع مع رافع بن حديج فأجازه النبي ﷺ ، وقد استخلف على البصرة والكوفة ، وكان يقيم في كل منهما ستة أشهر ، وقد نشأ سمرة بن جندب يتيماً وهاجرت به أمه إلى المدينة وتزوجت فيها ، وقد مات سنة ٦٠ هـ(٢٣) بعد رحلة جهاد طويلة في الإسلام .

– ومنهم سعد بن خيثمة ، وقد أجازه الرسول عليه الصلاة والسلام في الخندق بعد أن بلغ الخامسة عشرة من عمره .

وقد قاتل في غزوة الخندق بشدة ، فدعا له الرسول عليه الصلاة والسلام بالبركة في ولده ومسح على رأسه ، فاستجاب الله دعاءه ، وكان من نسله الامام أبويوسف القاضي والفقيه الحنفي المجتهد المشهور(٢٤) .

– ومن شباب الصحابة المجاهد . . ابن المهاجرة شرحبيل بن حسنة الذي نسب إلى أمه ، وأبوه هو عبدالله بن المطاع بن المطاع بن

(٢١) راجع أحمد الشرباصي : موسوعة الفداء في الإسلام جـ ١ ص ٢٩ ، ٢٨٦ طبع دار الجيل بيروت ط ١٤٠٣ هـ .

(٢٢) البلاذري : أنساب الأشراف جـ ١/ ٣١٦ تحقيق محمد حميد الله دار المعارف بمصر .

(٢٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٧/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

(٢٤) انظر موقعة بئر معونة في سيرة ابن هشام، وانظر سليمان الندوي : الرسالة المحمدية ص١٥٦ ومابعدها .

الطريف الكندي «وحسنة» أمه كانت من السابقات إلى الإسلام وهاجرت إلى الحبشة في الهجرة الثانية مع ابنها شرحبيل الذي أسلم أيضاً . . وقد كانت لشرحبيل مواقف شهدت بأمانته وبشجاعته واسهاماته .

وفي أثناء هجرته إلى الحبشة اختير شرحبيل ليكون الحارس الأمين . . . لأم المؤمنين أم حبيبة . . . «رملة بنت أبي سفيان» في رحلتها من الحبشة إلى المدينة ليحضرها للرسول - ﷺ بعد أن تزوجها رسول الله عليه السلام . . وقد أرادت أم المؤمنين أن تكافئه على ماشهدت من عمق إيمانه ونبل أخلاقه وتمام أمانته . . . فوهبته داراً كانت لها بالمدينة . وقد بقيت هذه الدار حتى اشترى الخليفة العباسي جانباً منها وأدخلها في ساحة المسجد النبوي .

وكما جاهد «شرحبيل بن حسنة» في عصر الرسول - ﷺ - فقد جاهد في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وشارك مع خالد بن الوليد في حروب الردة ، وأثبت مهارته القتالية ثم كان أحد الأمراء الأربعة الذين وجههم أبوبكر - رضي الله عنه - إلى الشام .

وقد أبلى «شرحبيل بن حسنة» في هذه الفتوحات أحسن البلاء حتى دكت جيوش المسلمين دولة القياصرة في الشام .

- وكما أثبت الشاب المجاهد ابن المهاجرة جدارته في ميدان القتال في عهد أبي بكر - رضي الله عنه(٢٥) - فقد استعان به الفاروق عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه فولاه قاضياً على «المدائن» .

ومن شباب الصحابة حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله ﷺ الذي تربى في كنف أبوين من السابقين في الإسلام ، فأسلم قبل أن تكتحل عيناه بمرأى رسول الله - ﷺ - ، وما إن رأى النبي حتى سأله :

---

(٢٥) مجلة المجاهد : عدد رقم ٩٦ سنة ١٤٠٩هـ مصر .

أمهاجر أنا أم أنصاري يارسول الله؟ فقال : عليه الصلاة والسلام – إن شئت كنت من المهاجرين وإن شئت كنت من الأنصار فاختر لنفسك ماتحب فقال : بل أنا أنصاري يارسول الله . وكان ذلك بسبب أن والد حذيفة «اليمان» مكي الأصل من بني عبس ، لكنه أصاب دماً في قومه فخرج إلى يثرب وهناك حالف بني عبد الأشهل وصاهرهم . ولما أهل الإسلام بنوره كان اليمان أبوحذيفة أحد عشرة من بني عبس أعلنوا اسلامهم بين يدي رسول الله – ﷺ – وذلك قبل أن يهاجر إلى المدينة ، ومن هنا كان حذيفة مكي الأصل مدني المنسأة .

وقد شهد حذيفة كل الغزوات إلا بدراً . . أما غزوة أحد فقد حضرها وغبر وجهه في سبيل الله واستشهد والده فيها بسيوف المسلمين ، وهم لايعرفونه . . فما كان من حذيفة إلا أن قال : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . . . وأراد النبي – ﷺ – أن يعطيه دية أبيه إلا أنه من كريم خصاله قال : إني تصدقت بها على المسلمين فازداد بذلك منزلة عند رسول الله – ﷺ – وكان حذيفة قد اشتهر بثلاث خصال : ذكاء يسعفه في حل المعضلات ، وبديهة مطاوعة تلبيه كلما دعاها وكتمان للسر فلا ينفذ إلى غوره أحد ؛ ولذلك أفضى النبي ﷺ – لحذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين وهو سرّ لم يطلع عليه أحد من أصحابه ، وعهد إليه برصد حركاتهم وتتبع نشاطهم ودرء خطرهم عن الإسلام والمسلمين . ومنذ ذلك اليوم دعي حذيفة بن اليمان بصاحب سرّ رسول الله – ﷺ–

وكان أصحاب رسول الله – ﷺ – يسألونه عن الخير إلا حذيفة فقد كان دائم السؤال عن الشر ، وقد قال عن نفسه : أسأل عن الشر لا لآتيه ولكن لأتقي الوقوع فيه .

وقد استعان الرسول – ﷺ – بحذيفة في موقف من أشد المواقف

خطراً وأحوجها إلى الذكاء والبديهة ، وذلك في ذروة غزوة الخندق ؛ حيث كان المسلمون قد أحاط بهم العدوّ من فوقهم ومن تحتهم وطال عليهم الحصار واشتد عليهم البلاء وبلغ منهم الجهد كل مبلغ ، وقال الرسول لأصحابه وقد عصفت الريح واشتد البرد : من يأتيني بخبر القوم ويكون معي في الجنة؟ فسكت القوم عن آخرهم فكررها الرسول - ﷺ- ثلاثاً ، وفي الثالثة قال واثقاً من ذكاء حذيفة : قم ياحذيفة فأتني بخبر القوم . . قال فقمت أمشي وكأني في حمام - يقصد في دفء - لا أخشى البرد فنظرت في القوم فرأيت أبا سفيان قد أوقد ناراً يصطلي عليها بظهره فهممت أن أرميه بسهمي لولا أني ذكرت قول رسول الله - ﷺ - لي ائتني بخبر القوم ولا تفزعهم عليّ ، فرجعت وكأني في حمام فأخبرته بخبر القوم . . ثم رقدت فأخذني النوم فغطاني رسول الله - ﷺ - بردائه حتى إذا ما أسفر الصبح قال : قم يانومان . . . يداعبه لما فيه من شجاعة ونجابة(٢٦) .

ومن شباب الصحابة أبوسعيد الضحاك بن سفيان بن كعب العامري الذي بذل جهوداً كبيرة في خدمة الإسلام والذي وصفه الرسول بأنه يعدل مائة فارس . ففي فتح مكة أعطاه النبي لواءً . وجعله أميراً على بني سليم ، وكانوا تسعمائة . . فقال لهم رسول الله سأرسل لكم رجلاً يوفيكم ألفا ؟ فقالوا ومن هو يارسول الله ؟ فقال : الضحاك بن سفيان فقبلوا فرحين .

ولقد اشترك الضحاك في حروب الإسلام ومواقعه فقاد سرية فدائية إلى بني كلاب في أرض نجد . فلما دعاهم إلى الإسلام . . ردوا عليه بالعدوان ، فقامت بينهم معركة ثبت فيها الضحاك ثبات الأبطال . .

---

(٢٦) مجلة المجاهد عدد ١٠٩ (ديسمبر ١٤١٠هـ) .

حتى تحقق النصر له ولسريته على الأعداء ، كما اشترك في المعارك الشرسة الفاصلة مثل «حروب الردة» فكان له فيها النصيب الأوفر من التضحية والفداء حتى نال الشهادة(٢٧) .

●●●

إن هؤلاء الذين يمثلون شباب الدعوة هم الذين رباهم محمد ﷺ ، ووهبهم الله حب نبيه لدرجة أن زيد بن الدثنة يرفض أن يكون الرسول تصيبه شوكة ، وهو في أهله لا في الموقع الذي يصلب فيه . . . هؤلاء الصحابة هم الذين أقاموا - بدمائهم وتضحياتهم - البناء ، ونشروا كلمة الله في الآفاق ، ووضعوا الأسس الصالحة لقيام الدولة الإسلامية وبقائها؛ إذ هي دولة دعوة وجهاد وعمل . . . والتنمية فيها تقوم على أساس الإنسان . . . الإنسان الداعية . . والإنسان المنتج والمبدع والعامل في سبيل الله ، وليس لمجرد الإستمتاع في الأرض ! !

اسهام شباب الصحابة في بناء دولة الإسلام :

كان إنشاء المسجد وبيوت الرسول ﷺ هي أول معالم مدينة الإسلام الجديدة . . . إن كلمة (يثرب) ستصبح ذكرى تاريخية ، وستتألق عبر التاريخ الإسلامي كله وإلى يوم القيامة إن شاء الله دار الهجرة . . مدينة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعلى أكتاف الشباب - بنسبة كبيرة - قام بناء المسجد وأقيمت بيوت الرسول . . . والمسجد بني في وسط المدينة تقريباً . . وأبى الغلامان صاحبا المربد (وهما من بني النجار) الذي اختاره الرسول لإقامة المسجد عليه أن يأخذا ثمنه ، وطلبا أن يهباه للرسول . . لكن الرسول أبى أن يقبله منهما ، واشتراه منهما ثم بناه وصحابته في صورة تعاونية تؤكد

(٢٧) المجاهد عدد ١٠٢ شوال ١٤٠٩هـ .

الدور الجماعي التعاوني في إقامة مسجد رسول الله وتظهر الروح الجديدة القائمة على الأخوة الإسلامية . . وكان الرسول ينقل اللبن فيقتدي به المسلمون مسرورين سعداء ينشدون من خلفه عليه السلام :

اللهــم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصــار والمهــاجرة

وهنا نشير إلى جهود شاب من خيرة الصحابة ألمعنا إلى بعض مواقفه سابقاً ، وهو عمار بن ياسر رضي الله عنه ، الذي كان من أكثر الصحابة حماساً وعملاً في بناء مسجد الرسول ، وقد دعا له الرسول ﷺ ، وكان يعمل عمل رجلين ، فيحمل لبنتين بينما يحمل غيره لبنة واحدة . . . كما أن عماراً كان له نشاط كبير في بناء مسجد قباء أول مسجد بني في الإسلام، وقد كان عمار هو الذي أشار ببناء مسجد قباء على رسول الله ﷺ ، وجمع له الحجارة ، ولما أسسه الرسول أكمل عمار بن ياسر بناءه(١)، وفي مسجد قباء نزل قوله تعالى :

﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾(٢) .

●●●

ونعود إلى المسجد النبوي وما ارتبط به من اسهامات شباب الصحابة ، ونشير إلى ان الرسول قد حدد القبلة عن طريق عريش أقامه في الطرف الشمالي للجامع ، وفي الطرف المقابل لناحية القبلة أقيمت الصفة ، وهي سقف أو ظلة مقامة بعرض الجدار يجلس تحتها نفر من الفقراء وغيرهم من الراغبين في قضاء حياتهم قرب رسول الله ومسجده للقيام بخدمة الرسول والمسجد وللتعبد والتعلم ، ومعظمهم من الشباب، ومن هؤلاء وجد من لاينطبق عليهم وصف الفقر مثل أبي ذر

---

(١) السهيلي : الروض الأنف ٢/ ٢٤٢ .
(٢) التوبة : ١٠٨ .

الغفاري وعمار بن ياسر وصهيب الرومي رضي الله عنهم ، وكانت لهم بيوتهم المعروفة «ومن هنا فلابد أن يكون لأهل الصفة عمل محدد ووظيفة بالنسبة للمسجد وبالنسبة للرسول ﷺ»(٣) . . .

ولقد انقطع أهل الصفة للعلم والعبادة وقراءة القرآن وتدوينه ودراسته وذكر الله تعالى وحفظ الحديث . . لقد أصبحوا ذاكرة الأمة «وكمبيوترها» ومؤرخها ومحدثها . . ومنهم اشتهر أئمة الحديث والعلم مثل أبي هريرة رضي الله عنه وحذيفة بن اليمان . ولكن انقطاع أهل الصفة للعلم والعبادة لم يعزلهم عن المشاركة الإيجابية في تطوير المجتمع وفي المساهمة الإيجابية في الجهاد ؛ لأن الإسلام دين ودولة، فكان منهم لمجاهدون والشهداء . . مثل صفوان ابن بيضاء وزيد بن الخطاب وحزيم بن فاتك الأسدي وخبيب بن إساف وسالم بن عمير وحارثة بن النعمان الأنصاري وحنظلة الغسيل» .(٤)

وجدير بالذكر أن قيام مسجد الرسول لم يكن رمزاً لقيام دولة الإسلام فقط (بكل الوظائف الشمولية للمسجد) بل كان أيضاً بداية لعمران المدينة ، فامتد شارع مبلط من غربي الجامع إلى جبل سلع في الجانب الغربي من المدينة ، واتصل هذا الشارع حتى بقيع الغرقد الذي أصبح مقبرة المدينة . ومن عند المسجد امتد شارع آخر نحو الشمال في اتجاه السنح ، ونشأت الدور على طول هذين الشارعين الكبيرين .

وقد أعطى الرسول المهاجرين والطارئين ومن يريد قطعاً من الأرض المهملة فبنوا فيها بيوتاً ، وعمروها بالزراعة فكان لذلك أثره الكبير في عمران المدينة(٥) .

وكثرت الأسواق في المدينة وزاد السكان زيادة كبيرة للأمن والإيمان

---

(٣) حسين مؤنس : عالم الإسلام ١٤٧ .

(٤) محمد لقمان الأعظمي الندوي : مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ: دار الاعتصام بمصر ص١٠٢ .

(٥) د. حسين مؤنس : عالم الإسلام ص١٤٨ .

الشائعين فيها ، ومن هنا كانت أسعار الأرض والمباني وحاجات الحياة ترتفع شيئاً فشيئاً .

وقد درب الرسول ﷺ على الاجتهاد ، وكان يشيد بذوي الكفاية منهم ، كما أشاد بعمار بن ياسر ، وما كان عليه السلام يضع السن في الاعتبار الأول عند تولي المهمة أو المسؤولية .. ويكفي أن نذكر لهذا مثالين يقاس عليهما ماسواتهما وهما يبرزان لنا صفات من يكون أولى بإمامة المسلمين في الصلاة .

أما المثال الأول فيبرز فيما رواه أبومسعود رضي الله عنه في قوله : قال رسول الله ﷺ : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً ، ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه ، ولايقعد على تكرمته إلا بإذنه(٦) . . . ولقد نفذ المسلمون هذا الميزان في عهد الرسول كما في قصة عمرو بن سلمة ، وهو من صغار الصحابة ، وكان سمع من الركبان الذين يمرون ببلده مايسمعونه من النبي ﷺ ، ويحفظ ما سمع ، فلما وفد أبوه إلى النبي بإسلام قومه رجع إليهم فقال : قد جئتكم والله من عند النبي حقاً ، فقال : صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلوا كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمن أكثرهم قرآناً ، فنظروا ، فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني لما كنت أتلقى من الركبان ، فقدّموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين(٧) . . . (إلى آخر الحديث المروي في البخاري . . .) ووقوع هذا وأمثاله في زمن الوحي وعدم نزول وحي ينكره يدل على إقراره(٨) .

أما المثال الثاني ، فيقدمه لنا نموذج عثمان بن أبي العاص بن بشير

(٦) رواه مسلم .

(٧) الدكتور عبدالله قادري : الكفاءة الإدارية في السياسة الشرعية ص ١٥٣ دار المجتمع للنشر ١٤٠٦هـ جدة .

(٨) راجع البخاري وانظر عبدالله القادري : المرجع السابق ١١٤ .

ابن مالك بن خطيط بن جشم من ثقيف ، وكان عثمان بن أبي العاص في وفد ثقيف الذين قدموا على رسول الله ، ﷺ إلى المدينة فأسلموا ، وكان عثمان من أصغرهم فجاء إلى النبي ، ﷺ قبلهم فأسلم وأقرأه قرآناً ولزم أبيّ بن كعب فكان يقرئه ، فلما أراد وفد ثقيف الانصراف إلى الطائف قالوا : يا رسول الله أمر علينا ، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي ، وقال انه كيس وقد أخذ من القرآن صدراً ، فقالوا : لا نغير أميراً أمره رسول الله ، ﷺ ، فقدم معهم الطائف ، فكان يصلي بهم ويقرئهم القرآن ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب وخط البصرة ونزلها من نزلها من المسلمين أراد أن يستعمل عليها رجلاً له عقل وقوام وكفاية فقيل له : عليك بعثمان بن أبي العاص ، فقال : ذاك أميره رسول الله ، ﷺ ، فما كنت لأنزعه ، فقالوا له : اكتب إليه يستخلف على الطائف ويقبل إليك ، قال : أما هذا فنعم . فكتب إليه بذلك فاستخلف أخاه الحكم بن أبي العاص الثقفي على الطائف ، وأقبل إلى عمر فوجهه إلى البصرة فابتنى بها داراً واستخرج فيها أموالاً منها شط عثمان الذي ينسب إليه بحذاء الأبلة وأرضها ، وبقي ولده بها وشرفوا وكثرت غلاتهم وأموالهم ولهم عدد كثير وبقية حسنة(٩) .

وكان لرسول الله ﷺ بعض الأعمال والوظائف يسندها لبعض أصحابه عملاً ، وان لم يحددهم بالقول ، حتى كانوا يعرفون بأصحاب تلك الأعمال ، كما كان ابن مسعود صاحب نعليه ووسادته ، وكان حذيفة صاحب سره ، كما صح ذلك عن أبي الدرداء رضي الله عنه(١٠)

وكان أنس بن مالك خادماً لرسول الله ﷺ وهو صبي في سنته الثامنة . . . وقد نقل إلينا كثيراً من معاملات الرسول وآثاره . . . ومما ذاع عنه قوله : خدمت رسول الله ﷺ عليه وسلم عشر سنين فما أمرني بأمر

(٩) ابن سعد الطبقات الكبرى : ٧/ ٤٠ .
(١٠) راجع البخاري وانظر عبدالله القادري المرجع السابق ١١٤ .

توانيت عنه أو صنعته فلامني ، وان لامني أحد من أهله قال : دعوه فلو قد ، أو قال : قضى ان يكون لكان(١١) .

وقد كان بعض الصحابة يشتهرون ببعض المهارات ، فقد كان منهم من يجيدون بعض اللغات الأجنبية ، وقد اختير سفراء الرسول من هؤلاء ، وكان من شباب الصحابة بعض كتاب الوحي ، وكان منهم من اشتهر بفن القتال الفردي والمهارة الحربية مثل علي ابن أبي طالب ، ومنهم من اشتهر بالكفاءة في فن القيادة الجماعية مثل خالد بن الوليد . . وكان منهم من عرفوا بعض العلوم والآداب والمعارف . . فضلاً عن الذين ذادوا عن الإسلام بشعرهم ، والذين اشتهروا بالذكاء التجاري أو الصناعي أو الإجتماعي . .

إسهام شباب الصحابة في تنمية المجتمع حضارياً :

عندما وفد المهاجرون إلى المدينة استقبلهم الأنصار بحفاوة وحب لم يعرف تاريخ البشرية مثلهما حفاوة وحباً . . . وكان مما عرضوه عليهم ان يقسموا بينهم أموالهم وأرضهم ودورهم . . لكن المهاجرين شكروا لهم كرمهم ، وعملوا في شتى مناشط الحياة مع اخوانهم الأنصار . . . وكان الأنصار أصحاب مزارع فقالوا للرسول ﷺ : اقسم بيننا وبين اخواننا النخل ، قال : لا . . فقالوا : تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة ، فقالوا : سمعنا واطعنا(١٢) وبدأت عملية مزارعة كبرى في المدينة أعقبتها حركة احياء للأرض الزراعية المهملة . . . وفقاً للقاعدة الشرعية التي وضعها الرسول عليه الصلاة والسلام : «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له»(١٣)

(١١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٧/ ١٧ نشر دار صادر بيروت .
(١٢) رواه البخاري .
(١٣) رواه البخاري .

وقد اقطع الرسول عليه الصلاة والسلام على بن أبي طالب عيوناً بينبع اشتهرت فيها بعد بكثرة انتاجها ، وعمل فيها على رضي الله عنه بنفسه .

- كما اقتطع الزبير بن العوام أرضاً بالمدينة استثمرها في الزراعة في حياة الرسول (١٤)

وقد اشتهرت في المدينة الكثير من الأودية التي انتشرت الزراعة بها في عصر الرسول ، منها وادي العقيق الذي هو أهم أودية المدينة وفيه أموال أهل المدينة ومزارعهم كذلك من الأودية المهمة التي استخدمت للزراعة في المدينة وادي (بطحان) وكانت به مزارع بني النضير وأموالهم كذلك وادي (مهزوز) كانت به أموال بني قريظة ووادي (قناه) وهو ثالث أودية المدينة ووادي (رانونا) .

كذلك من الأودية التي استفيد من أرضها بالزراعة وادي القرى .

كذلك عرف في الطائف الكثير من الأودية التي استفيد منها بالزراعة أهمها وادي (وج) ويقع غرب الطائف وفيه الكثير من المزارع والبساتين وترفده بعض الأودية الأخرى ، كذلك وادي (ليه) ويقع شرق الطائف وبالقرب منها (١٥) .

ولم يكن المهاجرون والأنصار وحدهم هم الذين أقاموا النهضة الزراعية في المدينة المنورة ، بل كان ضمن العاملين بالزراعة في المدينة (وغيرها من مدن الحجاز) شباب آخرون من الأجانب الذين اسلموا والتحقوا بالمدينة ، سوريين أو مصريين أو رومانيين أو عراقيين ، ومما يدل على كثرة الموالي ، ان الرسول ﷺ حينما حاصر الطائف وأعلن عتق

---

(١٤) انظر نص الاقطاع في الوثائق السياسية لمحمد حميد الله (نقلاً عن : عبدالعزيز العمري : الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (ص٨٦ نشر قطر ١٩٨٥) .

(١٥) العمري : المرجع السابق ص ٨٨ ، ٨٩ .

من ينزل إليه من الموالي . نزل إليه ثلاثة وعشرون عبداً من موالي الطائف . وكانت هناك مجموعة كبيرة من الموالي الأحباش يعملون في المدينة في حقول الأنصار ويدل على وجودهم الملموس أنهم حين قدم الرسول ﷺ المدينة يوم الهجرة خرج هؤلاء الأحباش واجتمعوا ولعبوا بحرابهم فرحاً بقدوم النبي ﷺ إلى المدينة(١٦) .

وكانت لهذه الطوائف الشابة تأثيرها الذي لاينكر في تنمية الزراعة في عهد الرسول ﷺ .

وقد امتازت المدينة المنورة في عصر الرسول ﷺ بالنشاط التجاري ، بعد أن ضيق المسلمون على مكة . . . وكانت أسواق المدينة أوفر أسواق الحجاز بالإنتاج الزراعي بالإضافة إلى سلع أخرى كالجلود والسلاح ومختلف أنواع الطعام ، كما أن سوق المدينة كانت تعرض فيه الإبل والغنم والخيل للبيع ولها أماكن مخصصة من السوق ، فقد كان عبدالله بن عمر رضي الله عنه ممن يبيعون الابل في (البقيع) والسمسرة معروفة في المدينة أيام الرسول ، وهي الدخول بين البائع والمشتري ، وكانوا في سوق المدينة يسمون السماسرة ، فقد ورد في حديث أحد الصحابة قال (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نسمي السماسرة ، فقال يامعشر التجار : إن الشيطان والإثم يحضران البيع فشوبوا بيعكم بالصدقة) فدل ذلك على تسميتهم بالسماسرة وان الرسول سماهم التجار(١٧) .

وقد اهتم الرسول بالصناعات العسكرية نظراً لحاجة الدولة الناشئة ونشر الإسلام إلى الحماية العسكرية . . . ولهذا حث الرسول ﷺ صحابته ولاسيما الشباب على اجادة الرمي . . وقد اشتهر عدد كبير من الصحابة بالرمي ، وعلى رأس هؤلاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي كان

(١٦) العمري : المرجع السابق ص ٩٦ .
(١٧) المرجع السابق ص ١٣٠ .

الرسول يناوله الأسهم ويقول : (ارم سعد فداك أبي وأمي) ومن هؤلاء الرماة المهرة الذين اشتهروا في أحد أبوطلحة بن عبيد الله الأنصاري الذي كسر قوسين أو ثلاثة لشدة رميه وكثرته .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمرنون على الرمي باستمرار بناء على توجيه الرسول ﷺ ، وكان يشهد ذلك معهم ، حتى انهم في بعض الأيام كانوا يترامون عامة اليوم وكما هي الحال في المدينة فقد كانت ثقيف في الطائف مشهورة بجودة الرمي وقوة الأقواس ، إذ أن رماتهم كانوا سبباً في استشهاد كثير من المسلمين في أثناء حصار الرسول للطائف بعد غزوة حنين ، كما ان الرماة كانوا سبباً في انتصار هوازن في أول معركة حنين ، ومن مشاهير الصحابة في الرمي سلمة بن الأكوع رضي الله عنه الذي استطاع بمهارته في الرمي استنفاذ لقاح النبي ﷺ بعد ان اخذتها فزارة وغطفان .

وقد اشتهر عن (خباب بن الأرت) رضي الله عنه أنه كان قيناً بمكة يصنع السيوف ، وقد صنع يوماً سيوفاً للعاص بن وائل السهمي فلم يعطه أجره وحين جاء يطلب أجره قال له العاص أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟ قال خباب : بلى قال : فانتظرني إلى يوم القيامة ياخباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك .

وقد كان من الحدادين أيضاً أبوسيف ، وهو قين في المدينة من الأنصار زوج أم سيف مرضعة ابراهيم ابن النبي ﷺ ، وقد ذكر أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول أتى إلى بيت أبي سيف وكان ينفخ في كيره وقد امتلأ البيت دخاناً . كما ذكر من الحدادين «مرزوق الصقيل» وقد ذكر أنه صقل سيف رسول الله ﷺ «ذا الفقار»(١٨) .

---

(١٨) العمري : المرجع السابق ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٧١ .

ومن الحدادين في الطائف كان الأزرق بن عقبة الثقفي وكان رومياً حداداً وهو من رقيق أهل الطائف الذين نزلوا إلى الرسول ﷺ أثناء حصاره للطائف فأعتقهم(١٩) .

وقد اشتهرت في عصر الرسول صناعة أسلحة كثيرة منها:

١- الدبابة : وهي عبارة عن عربة كانت تستخدم للاتقاء من السهام ، وكانت تصنع مغطاة بالجلد الغليظ وتستخدم لهدم الحصون .

٢- الضبر : كان يصنع من الخشب المغطى بالجلد ويستخدم للاتقاء من السهام من الخلف .

٣- المنجنيق : هو سلاح حربي يستخدم لرمي الأعداء بالحجارة .

٤- الحسك : هو سلاح ذو أشواك يفرش حول الحصن والمعسكر حتى تصير الطريق صعبة شائكة(٢٠) .

●●●

---

(١٩) العمري : المرجع السابق ص ٢٧١ .

(٢٠) محمد تقى : الإسلام تشكيل جديد للحضارة - ص ٢٢٠ دار العلوم بالرياض ١٤٠٢هـ .

جهود الصحابيات الشابات في خدمة الإسلام :

- كان للمرأة المسلمة نصيبها في بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية .

- وكما بايع الرسول الرجال فقد بايع - عليه السلام - النساء . . . وعلى جهود هؤلاء النساء وأولئك الرجال قامت دولة الإسلام . . . ولعل بيعة النبي ﷺ لهنّ بيعة خاصة ، لإشعارهن بهذا الإستقلال ، لتدخل كل منهن الإسلام من باب غير الباب الذي دخل منه زوجها أو أبوها : **﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ، يبايعنك : على ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم﴾**(١) .

قال الشيخ محمود شلتوت في رسالة (القرآن والمرأة) : «لعلك تأخذ من مبايعة النبي ﷺ للنساء مبايعة مستقلة عن الرجال ، ان الإسلام يعتبرهن مسؤولات عن أنفسهن مسؤولية خاصة مستقلة عن الرجل»(٢) .

- وقد أحسن المجتمع الإسلامي توجيه المرأة ، بحيث يضمن أن تكون عامل بناء لا عامل هدم .

- وقد قدم الصحابيات - رضي الله عنهن - القدوة المثلى للنساء المسلمات ، كما قدم شباب الصحابة القدوة المثلى لرجال الإسلام . .

وقد قاست المسلمات في أول ظهور الإسلام ماقاسى الرجال : من عذاب ، وهجرة ، واضطهاد ، وأذى ، وخرجن مع المقاتلين ، إعلاء لكلمة الحق وذوداً عن دين الله ، فقاسمن الرجال شرف الجهاد ، وآمن بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح بذل .

---

(١) الممتحنة آية ١٢ .

(٢) محمد بن عبدالله بن سليمان عرفه : حقوق المرأة في الإسلام- مطبعة المدني مصر سنة ١٣٩٨هـ ص٤٢ .

والتاريخ الإسلامي زاخر بالأمثلة الرائعة للتضحية والفداء في سبيل هذا الدين ونشره فآل ياسر أسرة بكاملها برجالها ونسائها ، لاقت مالاقت من القتل ، والتعذيب والتنكيل .

وأسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين) تكتم خروج رسول الله وأبيها إلى المدينة فينالها لذلك الأذى(٣) .

وفاطمة بنت الخطاب (أخت عمر) تلطم على وجهها لطمة سال منها دمها(٤) .

والخنساء تفدي الإسلام بأبنائها الأربعة ، وماتزيد حين بلغها خبر مقتلهم على أن تقول : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم جميعاً .

ونساء فضليات كريمات هاجرن مع أزواجهن إلى الحبشة ، وإلى المدينة ، غير مباليات بوعثاء السفر وخطورة الطريق وغضب العشيرة .

ونساء بقين في مكة مع أزواجهن المسلمين : يتحملن معهم أذى قومهم، وغير ذلك كثير عانينه في سبيل هذا الدين ومن أجل إظهاره ونشره . وقد كانت بيوت أزواج النبي ﷺ مدارس لنشر العلم ، ورواية الحديث عنهن ، تقصد من كل جانب ، فقد تنافس الصحابة في الأخذ عنهن ، حتى إن أبابكر وعثمان وغيرهم من كبار الصحابة كثيراً ماكانوا يسألونهن في دقائق المسائل العلمية وجلائلها(٥).

ولننظر في كتب السيرة والطبقات ، وسوف نجد صوراً مشرقة لجهود الصحابيات في مجالي الدعوة الإسلامية ، وذلك وفق نسيج محكم أحكمته شريعة الإسلام . . .

---

(٣) ينظر ابن هشام ج ٢ ص ١١٢ - من كتاب : محمد عرفة : حقوق المرأة ص ٤٧ .
(٤) ينظر سيرة ابن هشام ج١ ص ٣٢٧ ، ٣٥٨ - من كتاب : محمد عرفة : حقوق المرأة - ص ٤٧
(٥) محمد عرفة : حقوق المرأة - ص ٤٧ .

ولنقدم نموذجاً واحداً من هذه المصادر الوثيقة لنعرف كيف كان دور المرأة الوثيقة لنعرف كيف كان دور المرأة أساساً في بناء دولة الإسلام ونشر الرسالة الخالدة . . .

إن محمد بن سعد الواقدي صاحب الطبقات الكبرى قد أفرد المجلد الثامن من كتابه لأعلام النساء . . ومعظمهن صحابيات مجاهدات .

ومن رصدنا لمنهجه والمساحة التي عالجها ندرك أنه قدم مادة ثرية تتصل بمئات النساء اللائي نجح المؤرخ الكبير في رصدهن ، كما نجح في تقديم صور من حياة كثير منهن .

وفي البداية تحدث عن بنات رسول الله ﷺ ، فاطمة ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وأمامة بنت زينت بنت رسول الله (وهي بنت أبي العاص بن الربيع حفيدة الرسول) وعرض لجهاد منهن في إطار صلتهن المباشرة ببيت الرسول عليه السلام .

ثم عرض ابن سعد لعمات الرسول صفية وأروى وعاتكة وأم حكيم وبرةً وأميمة بنات عبدالمطلب . .

ومن ثم عرض لبنات عمومة الرسول ﷺ ضباعة وأم الحكم وصفية وأم الزبير وبنات الزبير ، وأم هانىء ، وأم طالب ، وجمانة بنات أبي طالب ، وأمامة بنت حمزة ، وأم حبيب بنت العباس ، وهند وأروى وأم عمرو بنات المقدّم ، وغيرهن .

وذكر بعد ذلك أزواج رسول الله ﷺ خديجة وسودة وعائشة ، وصفية ، وغيرهن رضي الله عنهن جميعاً . .

وبعد رصده لهذه الدوحة النبوية الكريمة تحدث عن (النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم وغرائب نساء العرب)

فعرض لحياة أكثر من سبعين مسلمة بايعت رسول الله ﷺ من قريش وأحلافها ومواليها ، وقدم نماذج من جهاد هؤلاء الصحابيات الفضليات. وتطرق ابن سعد بعد ذلك لغرائب (نساء العرب المسلمات المهاجرات المبابيعات) فعرض لحياة نحو ستين صحابية مهاجرة مبايعة .

وفي الموضوع التالي قدم ابن سعد سيرة «نساء الأنصار المسلمات المبايعات» فرصد سيرة خمسين ومائتي مسلمة أنصارية مبايعة من الأوس، ومن بني حارثة من الخزرج ، ومن بني ظفر من الخزرج، ومن نساء بني عمرو بن عوف بن مالك من الأوس ، ومن نساء بني حطمة بن جشم بن مالك بن الأوس ، ومن نساء بني ساعدة بن كعب بن الخزرج . . إلى آخر هذا الرصد الدقيق الرائع . .

●●●

فإذا ماتجاوزنا هذا الحصر «البيوجرافي» إلى دلالاته التحليلية أمكننا أن ندرك أن هذه التراجم النسائية التي تصل إلى عدة مئات ، والتي عالج المؤرخ ابن سعد ما يتصل بها في مجلد كامل من كتابه - يقع في خمسمائة صفحة - كافية في الدلالة على قوة هذا التأثير النسائي الذي استحق أن يرصد بهذا الكم الهائل، واستحق أن تعالج حياة صاحباته وأعمالهن ، ليس على أنها تاريخ حي فقط ،بل على أنها القدوة والمثال . . لأنها تمثل جيل الصفوة المحتذاة نساءً ورجالاً ! !

ومعروف أن حياة (نساء النبي) و(بنات النبي) قد أفردت لهن الكاتبة الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطيء) - وغيرها - كتباً . وقد تحدث عنهن آخرون تحت عنوان «كواكب حول الرسول»(٦) و«نساء حول الرسول»(٧) كما أن مايتصل بالبيت النبوي والنسب النبوي الشريف ملء السمع والبصر ، فلا حاجة للوقوف عنده . . .

---

(٦) عنوان كتاب للأستاذ عبدالحليم خفاجي المحامي - نشر القاهرة .
(٧) عنوان كتاب للأستاذ محمد موسى رمضان - نشر القاهرة .

كانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قد اسلمت بمكة وبايعت قبل الهجرة ، وكانت أول من هاجر من النساء إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ ولم نعلم - كما يقول ابن سعد - قرشية خرجت من بين أبويها مسلمة مهاجرة إلى الله ورسوله إلا أم كلثوم بنت عقبة، خرجت من مكة وحدها وصاحبت رجلاً من خزاعة حتى قدمت المدينة في الهدنة الحديبية ، فخرج في أثرها أخواها الوليد وعمارة ابناء عقبة فقدما المدينة من الغد يوم قدمت فقالا : يا محمد فِ لنا بشرطنا وماعاهدتنا عليه . وقالت أم كلثوم : يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعفاء ما قد علمت ، فتردني إلى الكفار يفتنوني في ديني ولا صبر لي؟ فقبض الله العهد في النساء في صلح الحديبية وأنزل فيهن المحنة وحكم في ذلك بحكم رضوه كلهم . وفي أم كلثوم نزل : ﴿**فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن**﴾ فامتحنها رسول الله وامتحن النساء بعدها يقول : والله ما أخرجكن إلا حب الله ورسوله والإسلام وماخرجتن لزوج ولا مال . فإذا قلن ذلك تركن وحبسن فلم يرددن إلى اهليهن . فقال رسول الله ، ﷺ ، للوليد وعمارة ابني عقبة : قد نقض الله العهد في النساء بما قد علمتماه فانصرفا ، وكان المشركون قد شرطوا على رسول الله يوم الحديبية : أنه من جاء من قبلنا وان كان على دينك رددته إلينا ومن جاءنا من قبلك رددناه إليك . فكان يرد إليهم من جاء من قبلهم يدخل في دينه ، فلما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة جاء أخواها يريدان أن يخرجاها ويرداها إليهم فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهنّ**﴾(٨).

وهكذا قدمت أم كلثوم بنت عقبة النموذج الأول للمرأة المسلمة ،

(٨) الطبقات الكبرى - لابن سعد - ص ٢٣٠/ م٨ - دار صادر - بيروت .

لهاربة بدينها المغامرة بحياتها ، المدافعة عن حقها في أن تلحق بدار الإسلام وان لا تترك الكافرين يفتنونها عن دينها ، فأيدها الوحي الكريم، ونزل أمر الله بامتحان المسلمات المهاجرات ، فإن ثبت أنهن ماهاجرن إلا لله والعقيدة ألحقن بدار الإسلام ونقض عهد الحديبية مع المشركين - بوضوح - في هذا الأمر ، وكان أن قبلت قريش تعديل هذا الشرط من شروط صلح الحديبية . . . والطريف في أمر أم كلثوم - تتمة لهذه الصفحة الرائعة - أنها قدمت المدينة دون ان يكون لها بمكة زوج ، فتزوجت خلال حياتها أربعة من كبار الصحابة هم زيد بن حارثة الذي ولدت له وقتل عنها يوم مؤتة ، ثم الزبير بن العوام الذي ولدت له زينب وطلقت منه ، فتزوجها عبدالرحمن بن عوف فولدت له ابراهيم وحميداً ، ومات عنها فتزوجها عمرو بن العاص فماتت عنده(٩) .

وتدلنا هذه اللقطة الطريفة على تلك السهولة التي كان المجتمع الإسلامي يعالج بها قضية الزواج وتعدد الزوجات ، فاتحاً المجال على مصراعيه لأبواب الحلال ، مغلقاً الأبواب بكل إحكام أمام الحرام . . فلا حساسية ثمة ولا محاذير اجتماعية مادام الأمر في حدود الشريعة ، أما إذا اقترب الأمر من الحرام فالمجتمع كله يقف له بالمرصاد . . . !!

وقد قدمت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - النموذج الأعلى للمرأة المسلمة الشابة العابدة العالمة ، وقد ذكر ابن الجوزي - رحمه الله تعالى في (صفوة الصفوة) عن هشام بن عروة قال : كان عروة يقول لعائشة رضي الله عنها يا أماه لا أعجب من فقهك ، أقول زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبي بكر ،وكان من أعلم الناس ولكني أعجب من علمك بالطب . فضربت على منكبه وقالت : أي عروة إن رسول الله ﷺ كان في آخر عمره

---

(٩) ابن سعد ٨/ ٢٣١ .

فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات فكنت أعالجها من ثم . » وفي تاريخ الإسلام للذهبي قال عروة بن الزبير : ما رأيت أعلم بالطب من عائشة فقلت ياخالة : من ابنى تعلمت الطب؟ قالت : كنت أسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه(١٠)

وكانت سهلة بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس قد أسلمت قديماً بمكة(١١) وبايعت وهاجرت إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعاً مع زوجها أبي حذيفة ابن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس وولدت له هناك محمد بن أبي حذيفة ، وتزوجها بعد أبي حذيفة عبدالله بن الأسود بن عمرو من بني مالك بن حسل فولدت له سليط بن عبدالله ، ثم خلف عليها شماخ بن سعيد فولدت له عامر بن شماخ ، ثم خلف عليها عبدالرحمن بن عوف فولدت له سالم بن عبدالرحمن .

وقد كانت سهلة بنت سهيل قد تبنت سالماً مولى أبي حذيفة وكان يدخل عليها فرخص لها رسول الله ، ﷺ ، ان ترضعه خمس رضعات(١٢) . فهنا في سهلة ، كما هناك في أم كلثوم بنت عقبة نجد نموذج الأنثى المجاهدة المهاجرة (إلى المدينة أو الحبشة) والتي تمزج هذا الجهاد بالحياة الطبيعية للمرأة ، فتتزوج وتلد ، وتقدم نموذج الحياة الكريمة السهلة الحلال الخالية من العقد الإجتماعية والراضية بقضاء الله وقدره .

وفي كعيبة بنت سعد الأسلمية نجد نموذجاً آخر للمرأة المسلمة ، فكعيبة بايعت بعد الهجرة ، وقد شهدت كعيبة خيبر مع رسول الله ﷺ، وقد أقامت لها في مسجد الرسول خيمة تداوي فيها المرضى والجرحى ، وكان سعد بن معاذ حين رمى يوم الخندق عندها تداوي جرحه حتى

(١٠) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام - ص٥ ، ٦ - دار الرائد العربي - بيروت ١٤٠١هـ.
(١١) ابن سعد ٨/ ٢٧٠ .
(١٢) ابن سعد ٨/ ٢٧٠ .

مات(١٣) ، وبديهي ان هذا كان بإذن من رسول الله!! وفي أم سنان الأسلمية(١٤) نجد النموذج نفسه الذي قدمته كعيبة ، فقد ورد أن أم سنان قالت للرسول لما أراد الخروج إلى خيبر : يا رسول الله أخرج معك أخرز «السقاء» وأداوي «المريض» و«الجريح» إن كانت جراح وأبصر الرجل؟ فقال : أخرجي على بركة الله فإن لك صواحب قد كلمتني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم ، فإن شئت فمع قومك وان شئت فمعنا ، قلت : معك ، قال : فكوني مع «أم سلمة» زوجتي ، قالت : فكنت معها .

وقد بوب الامام البخاري في كتاب المغازي ، باب «جهاد النساء» وباب «غزو المرأة في البحر» ، وباب «حمل الرجل امرأته في الغزو» ، وباب «غزو النساء وقتالهن مع الرجال» ، وباب «حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو» وباب «مداواة النساء الجرحى في الغزو» وباب «رد النساء الجرحى والقتلى» . وقد أخرج البخاري والنسائي عن الربيع بنت معوز بن عفراء قالت : كنا نغزو مع النبي ﷺ ، فكنا نسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة .

ولما أصيب سعد بن معاذ ، قال النبي - قدوة البشرية - : «اجعلوه في (خيمة رفيدة) التي في المسجد حتى أعوده من قريب» . . . وكانت امرأة تداوي الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان ضيعة من المسلمين .

وفي ترجمة «ليلى» الغفارية كانت تخرج مع النبي ﷺ في مغازيه تداوي الجرحى وتقوم على المرضى ، أخرج ابن مردودية في تفسيره عن معادة الغفارية قال : « كنت أنيساً لرسول الله ﷺ . . أخرج معه في

(١٣) ابن سعد : الطبقات ٨/ ٢٩١ .
(١٤) ابن سعد : الطبقات ٨/ ٢٩٢ .

لأسفار . . أقوم على المرضى وأداوي الجرحى»(١٥) . . .

ومنهن من كن يزين النساء ويعددنهن لأزواجهن ، ومنهن أم سليم بنت ملحان لما أعرس رسول الله ﷺ وآله وسلم بصفية بنت حيي ابن أخطب ، كانت التي جملتها ومشطتها وهيأتها «أم سليم» بنت ملحان كما جاء في طبقات ابن سعد . . وكانت هذه المهنة مهنة التزيين والذوق المرهف للجمال مهنة رفيعة وكانت أخت الخليفة الثالث عثمان رضوان الله عليه تمارسها كما جاء في الإصابة . . ولقد كانت رعلة القشيرية امرأة ذات لسان وفصاحة فقالت : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، إنا ذوات الجدود ومحل ازهار البعول ومن بنات الأولاد ولاحظ لنا في الجيش (أي واجب القتال لا التطوع) فعلمنا شيئاً يقربنا إلى الله . . وفيه : إني امرأة مقيِّنة أقين النساء وأزينهن لأزواجهن فهل من حوب فأنيط عنه ، فقال لها . . يا أم رعلة : «إقني هن وزينيهن . . الخ القصة»(١٦) وفي التجارة مارست المرأة البيع والشراء ، ففي طبقات ابن سعد عن قيلة أم بني أنمار قالت : جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المروة ليحل في عمرة من عمره فجئت أتوكأ على عصا حتى جلست إليه فقلت : يارسول الله إني امرأة أبيع واشترى فربما أردت أن اشتري السلعة فأعطي بها أقل مما أريد أخذها به ثم زدت حتى آخذها ، بالذي أريد ان آخذها به ، وربما أردت ان أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ثم نقصت حتى ابيعها بالذي اريد ان ابيعها به ، فقال لي : لا تفعلي هكذا يا «قيلة» ولكن إذا أردت أن تشتري شيئاً فأعطي به الذي

---

(١٥) ابراهيم بن علي الوزير : على مشارف القرن الخامس عشر الهجري - دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر ص ٧٠/ ٧١ .

(١٦) المكان السابق (نقلاً عن كتاب التراتيب الإدارية ص١١١/ج٢ للكتاني/ دار الشروق - بيروت ١٤٠٢هـ .

تريدين أن تأخذيه به أعطيت أو منعت ، وإذا أردت أن تشتري شيئاً فاستامي الذي تريدين ان تبيعيه به أعطيت أو منعت (١٧) .

وكانت أسماء بنت أبي بكر ذات دور معروف في هجرة الرسول ﷺ ، فهي ذات النطاقين التي أخذت نطاقها فشقته اثنين فجعلت واحداً لسفرة رسول الله والآخر عصاما لقربته ليلة الهجرة ، فسميت لهذا ذات النطاقين . . . وقد تزوجها الزبير بن العوام وهو فقير ليس له في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه . قالت أسماء فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونته وأسوسه ، وأدق النوى الناضجة وأعلفه وأسقيه الماء ، وأخرز غربه وأعجن ، ولم أكن أحسن أخبز فكان يخبز جارات لي من الأنصار ، وكن نسوة صدق . قالت وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله على رأسي وهي على ثلثي فرسخ . وكان الزبير مع خدمتها تلك شديدا عليها فأتت أباها فشكت ذلك إليه فقال : يابنيه اصبري فان المرأة إذا كان لها زوج صالح ثم مات عنها فلم تزوج بعده جمع بينهما في الجنة(١٨) .

وقد أنفقت أسماء شبابها وحياتها كلها في سبيل الله ، وقدمت نموذجاً عالياً للمرأة المسلمة فتاةً وزوجة وأماً . فرضي الله عنها وعن جميع الصحابيات الكريمات .

---

(١٧) المكان السابق .

(١٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٨ ص٢٥٠ ، ٢٥١ (ترجمة أسماء بنت أبي بكر) .

خاتمة :

لئن كان بديهياً ان الشباب عصب الأمة وصناع حضارتها . وهم وقود حروبها ، ولاسيما في تلك العصور التي لم تعرف فيها الأسلحة الشاملة ، كما أن الزراعة والصناعة والرحلات والسفارات كانت كلها تحتاج إلى سواعد قوية ، وإلى طاقة بدنية . . كما أن واجبات البيت وتربية الأجيال تحتاج إلى نساء مؤمنات قويات .

لئن كان ذلك أمراً مسلماً به ، فالحقيقة التي نستطيع الإنتهاء إليها مطمئنين ، ومن خلال الرصد الذي قمنا به لتلك النماذج الشبابية التي أوردناها ، الحقيقة ان الدعوة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ ، وان الدولة الإسلامية بقواعدها المادية والمعنوية ، وان بناء بذور الحضارة الإسلامية في المدينة المنورة والجزيرة والعالم - في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . . الحقيقة أنها جميعها قامت على اكتاف عشرات الألوف من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً ، ومعظم هؤلاء الصحابة كانوا من الشباب - ذكوراً واناثاً . . إنهم الذين صبروا في مكة على تعذيب أهلها ومطاردتهم ، وصبروا في الهجرة إلى الحبشة ، ثم صبروا في الهجرة إلى المدينة ، ثم في المرحلة المدنية . . مرحلة بناء الدولة والحضارة .

وقد قدموا - بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام - أروع نماذج شبابية عرفتها البشرية ، ولهذا كانوا - بحق - وسيبقون بإذن الله قدوة الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة .



القسم الثاني :

الشباب المسلم وتحديات الحاضر وآفاق المستقبل (في ضوء التجربة النموذج)

الشباب المسلم
وطبيعة المرحلة الشبابية

مما لا شك فيه ان مرحلة الشباب ذات أهمية خاصة وذات مشكلات خاصة – وهي – بحق – تلك المرحلة التي تكثر فيها التطلعات والتحديات ، ويجد الإنسان نفسه قد تجاوز مرحلة المراهقة بأحلامها الخيالية ، ودخل مرحلة أخرى تتحداه فيها مطالب واقعية . .

– إنه لابد ان ينهى دراسته إن كان قد انتظم في هذا الطريق ، أو ان يتقن حرفته أو يبرع في تجارته إن كان قد مشى في طريقهما .

– ولابد من ان يخطو خطوات عملية في تحقيق الإستقلال الاقتصادي والعاطفي عن الأبوين .

– ولابد من أن يفكر في مشكلة الزواج بطريقة واقعية مع مايواجه هذه المشكلة الآن من أعباء كثيرة .

– ومن الضروري ان تكون منظومته القيمية والأخلاقية والفكرية قد اتضحت في وعيه ، وبالتالي يتجه إلى دور اجتماعي محدد ، فضلاً عن مسؤولية نحو أمته ودينه – وكذلك يجب على الشباب أن يحدد موقفه من العلاقات الإجتماعية ومايكتنفها من التقاليد الإجتماعية والنظم الإقتصادية .

وفي ضوء هذا فإن عليه ان يحدد موقفه من الخيوط التي تشكل النسج الاجتماعي المحيط به ، واهم عناصر هذه الخيوط مايلي :

(أ) نظام الأسرة ومافيه من عادات وقيم وأوامر ونواه .

(ب) نظام التعليم بنظمه ومناهجه ومعلميه وأهدافه المعلنة .

(ج) الواقع الاجتماعي ومافيه من قوانين وعادات وتقاليد ونظم اقتصادية .

(د) أنساق القيم المعاصرة السائدة في المجتمع(١) .

وهنا تأتي أهمية التربية ومستوى الوعي الذي يكون الشاب قد وصل إليه من خلال بيته ومدرسته ومسجده . .

- فإما ان يضغط المجتمع عليه بأوضاعه السلبية والإيجابية ويوجهه كيفما اتفق دون قدرة على الصحوة والمواجهة ، بل دون رغبة وإرادة في هذا الصمود ؛ إذ أن بعض الشباب يتلقون الأوضاع الاجتماعية كما هي ويخضعون لها خضوعاً سلبياً . . وذلك ، بطبيعة الحال - عندما يكونون قد تشكلوا في البيت والمدرسة والمسجد تشكلاً سلبياً أو يكونون قد تركوا دون تربية وتوجيه . . . وإما ان يكون الأمر مختلفاً تماماً، فعندما يكون الشاب قد اعد إعداداً جيداً - ذكراً كان أو أنثى - فإنه يقاوم السلبيات ، ويشكل لنفسه إطاراً وموقفاً منسجماً مع قيمه ، يتحرك من خلاله ، فيقبل من المجتمع إيجابياته ويرفض سلبياته .

وهذا بالطبع يوضح لنا أهمية التربية السابقة لمرحلة الشباب ، سواء في مرحلة الطفولة ، أو المراهقة . . !!

لكن هذا لا يعني أن يترك الشاب لنفسه يواجه مرحلة الشباب ،

(١) د. خالد الطحان : مشكلات الشباب النفسية ومطالب تكليفهم : مجلة الأمة القطرية - شوال ١٤٠٦ عدد ٧٠ .

اعتماداً على فكرة أن مرحلة التكوين قد انتهت ، وانه - حسب طاقته - يجب ان يدخل المعركة . .

إن هذا المفهوم الشائع مفهوم خاطيء ، وان القدر الذي يجب ان يترك للشباب من الحرية والاختيار والتعبير عن الذات لا يعني ان وظيفة الوالد أو الأسرة قد انتهت . . بل ان المجتمع كله ، صغيره كالقرية أو الحيّ أو الأرحام ، وكبيره كالمحتسبين والمربين والدعاة ، هؤلاء وأولئك لابد ان يظل لهم اهتمام خاص بالشباب .

- إن وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر لا تعرف حدوداً زمنية فاصلة ، وبما ان فترة الشباب لا تعني التكوين الكامل ، إن كان ثمة وصول للكمال ، فإن الشباب لابد أن يكون مستعداً دائماً للتوجيه والنصح ، والفرق بين تلقيه لهذا التوجيه - في مرحلة الشباب - وتلقيه للتوجيه في مرحلة - المراهقة - ان ساحة الحوار في المرحلة الأخيرة قد انداحت ، واصبح مستواه يسمح بالتعبير عن الذات ، واصبح لزاماً على الآخرين ان يفسحوا صدورهم لحواره ، وتعبيره عن ذاته ، بل عليهم ان يحاوروه بطريقة تسمح باستمرار الثقة والحوار ! .

إننا نعرف ان الرسول عليه الصلاة والسلام ظل ينصح المسلمين ويعلمهم صبياناً وشباباً وشيوخاً حتى لقي ربه . .

ونعرف انه ظل يتعهد علياً وفاطمة رضي الله عنهما بالتوجيه والرعاية قبل زواجهما وبعده ، وكان يداعب علياً ويسميه أبا تراب ! !

وقد ظل عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير يشعران بمكانهما من والديهما ، دون ان تخالجهما نزعات التمرد والإستقلال التي يريد بعض المتأثرين بالأفكار التربوية اللا إسلامية الترويج لها . . . وهذا بالطبع

لأن والديها هما عمر والزبير ، فالمهم ان يكون الوالد قدوة ، أما حين يكون الوالد منحرفاً أو خائناً لمسؤوليته نحو بيته فليس في إمكانه أن يحتل المكانة الثابتة في التوجيه لأبنائه عندما تتطور مداركهم ويصلون لمرحلة الشباب !!

وهذا الذي نقوله لا يعني ان يلغى الوالد شخصية ابنه ، أو يصادر آراءه ، أو يفرض عليه ميوله هو ، ولا سيما في القضايا المستقبلية الأساسية مثل اختيار التخصص العلمي ، أو اختيار الزوجة ؛ ففي مثل هذه القضايا عليه أن يوجه وأن ينصح ، وان يقدم المبررات اللهم إلا إذا كان الابن واضح الانحراف في اختياره ، وذلك مثل الابن الذي يترك المجالات العلمية المحترمة شرعاً ، كالهندسة والطب والرياضيات والزراعة والعلوم الشرعية والعربية والإجتماعية والتجارية وغيرها ويؤثر عليها معاهد الرقص والبالية والفنادق والموسيقى . . . أو كان في اختياره للزوجة قد اختار حسناء في منبت السوء ، أو سافرة مكابرة لا تريد التوبة والعودة إلى الله - ففي هذه الحالات من حق الوالد أن يعمل على تغيير هذا المنكر بالطرق التي يستطيعها ، فإن عجز عن ذلك فلا يقطع صلته بابنه ، بل عليه ان يبقى على علاقته به حتى يبقى قادراً على توجيهه ووعظه ، فعساه يعود يوماً إلى الحق والرشد .

- وفيما يتصل بالمناهج التي يتلقاها الشاب في الجامعة فإن عليه ان يعرض ماتطرحه من مفاهيم فلسفية على ثوابت الإسلام ، وعليه ان يسأل الدعاة المخلصين الواعين ان كان عاجزاً عن مواجهة بعض اطروحات هذه المناهج . . وتتعاظم مسؤولية الشاب إن كان يدرس بعض العلوم المشوبة بمفاهيم الفكر الاوروبي العلماني الإلحادية ، مثل علوم الاجتماع والنفس والتربية والتاريخ والفلسفة . . وعليه ، وعلى الأسرة معه ،

والمحيطين من الأغيار على دينهم ان يقفوا معه ضد المفاهيم الفلسفية التي تطرحها هذه المناهج ، وهناك كتب ترد على هذه المناهج وهي موجودة في دور النشر والمكتبات الإسلامية بل اصبحت هناك مؤسسات متخصصة في تأصيل المعرفة اسلامياً وهناك اساتذة كبار متخصصون في العلوم الإنسانية قد نذروا أعمارهم لهذا العلم حسبة لوجه الله ، وكل منهم بارز في تخصصه ، تربية كان أو فلسفة - أو تاريخاً أو اجتماعاً أو انثروبولوجيا أو غيرها . . فحبذا ان يتعرف الشباب المسلم على هذه المؤسسات وهؤلاء الأساتذة ليأخذ عنهم مايساعده على مقاومة هذه الأفكار العلمانية والمادية .

وبالنسبة للواقع الاجتماعي وانساق القيم المطروحة ، محلياً وعالمياً يجب على الشباب المسلم ان يكون له موقف صارم إزاءها على ضوء الثوابت الإسلامية ، إذ ان الشاب المسلم لا يجوز ان يكون ورقة هشة معلقة في الهواء ، تتقاذفها رياح الواقع الإجتماعي والقيم الوافدة والخاملة الموروثة حيث تشاء !!

إن هذا الموقف النفاقي المصلحي «البرجماتي» إذا جاز على الشباب غير المسلم ، فإنه لا يجوز ان ينخدع به أي مسلم شاباً كان أو شيخاً . وان الشاب المسلم - من بين كل شباب العالم - لديه ثوابت يقينية تنسجم تماماً مع قوانين الفطرة ومايطرحه العقل السليم ومؤهلات التقدم ، فضلاً عن ان هذه الثوابت تصدر عن وحى كريم ثابت لا مرية فيه ولم يأته الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه .

- وفي ضوء هذا فلا عذر للشاب المسلم في اتخاذ مواقف مذبذبة تجاه مايطرحه الواقع من داخله او من خارجه منحرفاً عن هداية الله وسنن الفطرة .

فإذا أضفنا إلى هذه الثوابت المنقولة والمعقولة والمحكمة النسيج – ان الشاب المسلم لديه تجربة إيمانية شبابية مثالية قدمها جيل الصحابة والتابعين على أفضل مايكون النموذج الواضح الموافق للطاقة البشرية الصالح للتطبيق في كل عصر . . . أ

إذا أضفنا هذا فإننا لا نستطيع ان نجد عذراً للشباب المسلم الذي ينحرف عن هذا الرصيد الهائل الذي لا تملكه أية أمة أخرى ، تنظيراً أو تطبيقاً . . . !! ولا نرى – بالتالي – معنى لهذه التحليلات الفارغة التي تريد تصنيف الشباب المسلم مع قوافل الشباب العالمي ، وتزعم ان هناك ثورات شبابية عالمية تبحث عن التعبير السليم عن نفسها ، وتسعى إلى تجاوز انساق القيم التقليدية ، وإلى مزيد من الحرية والفاعلية الشبابية ، وإلى تحقيق حرية الشاب ذكراً أو انثى في إشباع ميوله وغرائزه بالطريقة التي يريدها . . دون قيود دينية أو قانونية أو إجتماعية !!

– إننا نرى هذا الكلام استسلاماً للإنحراف الحضاري العالمي ، ودفاعاً عن بعض المنحرفين من الشباب المسلم ، بل ان هذا الكلام محاولة لتأصيل هذا الانحراف ، وتحويله من شذوذ مرفوض إلى قاعدة مشروعة ومقبولة.!!

– فإذا لم يكن الشباب المسلم مختلفاً عن هذا الشباب ، مربوطاً بثوابته الإسلامية وتجارب أمته الحضارية . . فما معنى ان نسميه مسلماً؟!

– إن الخطأ شيء ، ونحن ندرك ان لمرحلة الشباب أخطارها البشرية الخاصة التي يجب ان تعالج بكل رفق ، وان تماط بكل عناية . . وهذا الانقلاب بحجة المرحلية الشبابية الهائجة ، والفوران العالمي الشبابي . . شيء آخر !!

ونحن نعرف ان حضارتنا الإسلامية ، وان الرسالة الإسلامية

السامية ، وبخاصة في عصر الرسالة والراشدين قد قامت بدرجة كبيرة على أكتاف الشباب . . .

ولهذا كان رسولنا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام يرعى الشباب رعاية خاصة ؛ فهو يقربهم إليه(٢) ، ويجالسهم ، ويستمع إلى آرائهم وأقوالهم ليشعرهم بذواتهم - ويربي فيهم الشخصية الاستقلالية ، ويدربهم على المسؤولية ، ويعتبر التزامهم بالإسلام من أجلّ الأعمال وأرقاها ، ويقدر عطاءهم في نشر الدعوة الإسلامية - وسرعة استجابتهم لدواعي النهضة والتغيير ، ويوصي بهم خيراً ، لأنهم أرقّ أفئدة وألين قلوباً . . وقد قال عليه الصلاة والسلام في بدء بعثته : «آمن بي الشباب وكفر بي الشيوخ» ذلك ان نفوس الشباب صافية وأجهزتهم الذهنية سليمة بعيدة عن أي غبش أو كدر . . . وكان عمر رضي الله عنه - لهذا أيضاً - يجعل من الشباب محلاً لشوراه ، ويعلل ذلك بصفاء عقولهم وقدرتهم على اللمح والنفاذ ، فكان يقدم عبدالله بن عباس رغم حداثة سنه في مجلس كبار الصحابة ، ويعلل ذلك بصفاء عقولهم وقدرتهم على اللمح والنفاذ ، فكان يقدم عبدالله بن عباس رغم حداثة سنه في مجلس كبار الصحابة ، وكان يستمع إليه ويحيل إلى رأيه(٣) .

فنحن - من هذا المنظور الإسلامي - نرفض ان يكون موقف الشباب المسلم انهزامياً ومستسلماً للواقع الاجتماعي والقيم الوافدة ، ونرفض بالتالي تصنيف الشباب المسلم ضمن المنظومة الشبابية العالمية ، ونؤمن بأن للشباب المسلم - مهما أخطأ - ثوابته العاصمة وقسماته الحضارية الغالبة ولا أدل على صدق مانقوله من أن الصحوة الإسلامية التي كانت في العصر الحديث متحدية الواقع المريض الذي كان يقوده -

(٢) د. عباس محجوب : مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي . كتاب الأمة : قطر ١٤٠٦هـ ص ١٠ (مقدمة عمر عبيد حسنة) .
(٣) المصدر السابق .

ولايزال – بعض الكبار ، إنما قامت على أكتاف الشباب . . . إنهم الذين رفضوا واقع هزيمة مائتي مليون عربي أمام دويلة صهيونية لايزيد عدد سكانها آنذاك (سنة ١٩٦٧م – ١٣٨٧هـ) بعد ان كانوا ينامون ويستيقظون على شعارات صارخة وزعامات ثائرة تعدهم وتمنيهم ، وماتعدهم إلا كذباً وتلفيقاً وغروراً . .

وانهم – كذلك – الذين رفضوا الأفكار الاشتراكية الشيوعية الغثة الكاذبة ، في وجة زمرة من الكبار ، من الأساتذة وأشباه المفكرين الذين باعوا دينهم وعقولهم وانتماءهم ، وكانوا يحاصرون الشباب – بالقوة – في حتمية الاشتراكية ، وفي رجعية الولاء الديني وفي أهمية تطوير الدين .

وانهم اليوم – الشباب – الذين يرفضون الأفكار العلمانية التي يطرحها سماسرة الفكر الرأسمالي الليبرالي والصليبي والصهيوني الصليبي(٤) والحداثي الأدونيسي الملحد(٥) ، والأركوني المنطلق من الولاء للكنيسة الفرنسية(٦) . .

ولو أعطى الشباب حقه الصحيح فيالتعبير السليم عن ذاته لوقي

---

(٤) في مدينة بال بسويسرا عقد أول مؤتمر عالمي للنصارى الصهاينة . وكان هرتزل اللعبة الجديدة اسمه (كارل فون أوردت) وهو رجل أعمال هولندي واختاره المؤتمرون لرئاسة الصندوق الدولي للاستثمار في اسرائيل . وأهداف الحركة الصهيونية النصرانية لإحداث رأي عام نصراني عالمي مهمته التكفير عن جرائم النصارى بحق اليهود ! ودور الصندوق جمع التبرعات وتوفير الاستثمارات لإسرائيل في المجالات التقنية المتطورة ، وعلى ضوء الرباط التوراتي بين الشعب اليهودي وأرضه أقر المؤتمرون من النصارى بعدم وجود حقوق دينية للنصارى في القدس (!!) (نقلاً عن مجلة الأمة القطرية صفحة (١٦ عدد ٧٠) .

(٥) نسبة إلى الشاعر الشيعي المتنصّر الخائن لدينه وحضارته «أدونيس» .

(٦) نسبة إلى محمد أركون جزائري تفرنس وحصل على رتبة فارس من الكنيسة الفرنسية وهو خائن للإسلام وحضارته ، يطعن في القرآن والإسلام ويدعو إلى إحداث تطور فيه على غرار المسيحية ، ولأركون تلامذة تخرجوا من السوربون وعملوا فيها معه ، بعضهم مصري وبعضهم خليجي ، وبعضهم من الشمال الافريقي .

– وقد بلغ من خبث أركون أنه يتهم المستشرقين المنصفين للإسلام بأنهم لم يفهموا الإسلام وبأنهم يخدعون المسلمين عن حقيقة دينهم وبعض أتباع أركون رؤساء تحرير في صحف مصرية وخليجية!!

الأمة كثيراً من عثرات السكون والاستسلام والتبرير العاجز ، وهي كلها ممّا يميل إليه بعض من يصفون انفسهم بالحكمة وإيثار السلامة والفهم المتعقل . .

ولقد جاء اعتصام الشباب المسلم بدينه في وجه كل مظاهر الهزيمة والذل والاستسلام سبيلاً لتحقيق النصر في حرب رمضان العظيمة (سنة ١٣٩٣هـ) التي تجلى فيها إيمان الشباب بدينهم ، وتعاونت معهم حكمة الشيوخ عندما ينطلقون من ثوابت الأمة وضميرها ، ويرفضون - كما رفض الملك فيصل (رحمه الله) والسادات - مقولات الاستسلام(٧) التي كانت تروِّج استحالة عبور خط بارليف ، واستحالة هزيمة إسرائيل ! !

وكما أثبت الشباب المؤمن وجوده في حرب رمضان ، وأثبتها في الجهاد الأفغاني العظيم الذي كان من أكبر معارك تعرية النظام الشيوعي ، وكشف الغطاء عنه ، كذلك فإن على هذا الشباب - وهو أملنا - أن يواجه تحديات الواقع المعاصر بالفكر الجاد والموقف الحضاري الإسلامي الواعي الرشيد ! !

الشباب المسلم والثقة في الله ومحاربة اليأس :

ليس مسلماً من يسمح لليأس أن يستبد به . .

ومهما كثرت الغيوم ، وتكاثفت السحب ، وأحيط بالمسلم من كل جانب ، وتعقدت المخططات ، وهان الحكام وخان الإخوان ، وخيل للمسلم أن أمر المسلمين خرج من أيديهم وأصبح بأيدي أعدائهم ، واستشرى الظلم والعنصرية والطبقية والأنانية والترف والربا والانحلال في

(٧) لنلاحظ أن الشيخ الحكيم (محمد حسنين هيكل) فيلسوف الهزيمة الناصرية والاستبداد الفردي كان ينشر اليأس من النصر بين العرب والمصريين ، وكان كالعادة المزمنة المعروفة فيه يتكلم - أيضاً - «بصراحة!!» .

بلاد المسلمين . . .

– مهما كانت عوامل السقوط على هذا الشكل الأسيف ، فإن واجب المسلم أن ينهض للأمر ، وأن يلقى الله مجاهداً لا يائساً ، وان يستعيد ثقته في دينه ، وإيمانه المطلق بأن مايجري هو عقوبة للناس على مااقترفوا ، فالسقوط في الذنوب بعض العقاب . . لأنه التمهيد للخزي والعذاب . . .

– لتكن لحظة الاظلام اليأس سحابة عابرة تطاردها جيوش الأمل والرجاء واليقين . . .

ولينظر المسلم حوله جيداً إلى كل المساحة ، وسيجد أن هناك ساحات من الضوء قد غابت عنه . . .

– ليترك زاوية الجبابرة والمترفين والعنصريين . . فهي مساحة هزيلة ضئيلة ، وليبصر بعمق ساحة الجهاد والحجاب وأصوات تطبيق الشريعة ومصارف الاقتصاد الاسلامي ، وسقوط المادية ، وظهور مناهج المعرفة الإنسانية الإسلامية . .

– وليرقب – بعمق – وليصغ بتركيز إلى تلك الإشارات الهائلة الوامضة التي يرسلها من عنده مفاتح الغيب كي نعلم ان تحولاً كبيراً في الطريق . . . إن الأرض لا يمكن أن تترك لقوة واحدة ظالمة غاشمة كافرة تسعى إلى السيطرة على البشرية وتسخيرها ومقاومة كل نبتة خير وبذرة حق . . .

– إن الله لا يمكن – عقلاً ولا نقلاً (٨) – أن يترك أرضه لهذه القوة الآثمة ! !

---

(٨) من الأدلة النقلية على استحالة انفراد دولة بحكم العالم قوله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ (البقرة ١٥١) وقوله : ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ وهذا يقتضي بقاء قوة للحق إلى يوم القيامة ، ولا حق سوى الإسلام .

ولسوف يثبت التاريخ أن سقوط الاتحاد السوفيتي هو بداية سقوط القوى الظالمة الطاغية اليوم ، فلقد كان الإتحاد السوفيتي هو الذي يعطي للقوى المضادة عنصر بقائها واستجابتها للتحدي واتزانها وتماسكها . . لكنها الآن - وفي ظل الخنوع الأوروبي ، والهدوء الياباني والصيني - تشعر وتتصرف على أنها سيدة العالم . . . وهي ماضية في تأصيل الظلم وتقعيد الباطل ومحاربة الإسلام بكل قواها وجنونها . . .

إنه لابد من تدافع وصراع بين الخير والشر والحق والباطل . . . وهذا التدافع يحتاج إلى رجال مؤمنين مهيئين للدور : **﴿ومايعلم جنود ربك إلا هو﴾**(٩) . . .

والمهم الآن وفي هذه السنوات الصعبة من تاريخنا - أن يحارب الشباب المسلم اليأس ، وأن يثق في الله وأن لا ييأس من رحمته . . .

- إن الله سبحانه ينادي عباده المؤمنين بأصدق بيان وأصرحه وأقواه ، داعياً لهم إلى الأمل في رحمته والثقة فيه :

﴿قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾(١٠) .

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾(١١) . . .

- هل ثمة بيان قوي موح أصدق وأوضح من هذا ؟

- وماذا يريد المسلم إذن ؟

- وحتى لو لم يبق إلا بعض سويعات قبل يوم القيامة فإن على

(٩) المدثر آية ٣١ .
(١٠) الزمر آية ٥٣ .
(١١) آل عمران الآيات ١٣٧ - ١٣٨ .

المسلم أن يوالي فاعليته وإيجابيته وعمله الصالح وأمله في الله : « **إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها ، فله بذلك أجر**»(١٢) .

- إن على المسلم أن يعامل الله ولا يعامل الناس وان ينتظر ثواب الله ورضاه ، لا ثواب الناس ولا رضاهم . . .

والناس - أبداً - ماكانوا هم المقياس . . فإن أشرف الخلق بعد رسول الله ﷺ ، وهما أبوبكر وعمر رضي الله عنهما - يوجد بعض المحسوبين على الإسلام من غلاة الباطنية من يبغضونهما ويلعنوهما منذ ثلاثة عشر قرناً . . . ! !

- ولنصف قرن كان الشيوعيون الخنازير - عليهم لعائن الله - يخونون أوطانهم ودينهم ويقدسون لينين وماركس ويتبجحون بذلك ، إلى ان أذن الله بإلقاء أصنامهما في مزبلة الواقع والتاريخ وركلهما بالأقدام ! !

فليس الناس هم المقياس ، فليحافظ المسلم على ثقته بالله وحده ، وليعمل على رضاه وحده ، ولو أكثر فيه الحاقدون المنهزمون الضائعون القيل والقال ! !

وفي سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام من الشواهد العالية مايفتحباب الأمل على مصراعيه بالرغم من كل غيوم اليأس . . . إنه - عليه السلام - في غزوة الخندق - بينما كان الناس في أقسى ساعات العسرة ، ولا يطمع الواحد منهم أن يتبوّل آمناً في هذه اللحظات كان الرسول ﷺ وهو يحضر الخندق مع المؤمنين يضرب ضربتين ويقول لهم :

- فتحت لكم بالأولى الروم وفتحت لكم بالثانية فارس ! !

---

(١٢) رواه مسلم .

- إن الرسول الذي لا ينطق عن الهوى كان بهاتين البشرتين يفتح نوافذ الأمل ، ويعبىء جوانب الثقة في الله ، ويربي المسلمين على ان يتجاوزوا الومضة المظلمة واللحظة اليائسة ! !

وجاء تاريخ المسلمين عبر الأربعة عشر قرناً الماضية ليؤكد الأمل والثقة والتغيير الداخلي ، والفقه الإيماني والعملي بسنن الله . .

- ففي كل وقت استمسك فيه المسلمون بهذه الثوابت أنقذهم الله مهما كانت ضراوة أعدائهم ، وها هم اليوم المسلمون بعد ان واجهوا مئات التحديات يصلون أكثر من مليار إلى القرن الخامس عشر وربما يبلغون أكثر من مليار وثلاثمائة مليون على أبواب القرن الواحد والعشرين الميلادي . .

ولو استيقظ ربع هذا العدد ، وعمل وفق سنن الله في صناعة النهضة وشروط الدعوة لتغير وجه التاريخ ، ولدخل الناس في دين الله أفواجاً . . حتى الأمريكان أنفسهم ! !

- وهذا هو طريق كل مسلم . . ولا سيما الشباب بعيداً عن نزغات اليأس وفلسفات الاستسلام لقد واجه المسلمون عديداً من الهزائم المادية ، في معارك القتال مرة ، وفي ارتداد بعض من آمن مرة أخرى ، وفي اكتشاف عناصر منافقه في صفوفهم مرة ثالثة . . إلى غير أولئك من كوارث كان يمكن أن تصيبهم بنوع من التراجع أو حتى بنوع من التوقف عن مواصلة الزحف . ولكن ذلك كله لم يقعد بهم عن المحاولة المتجددة واستئناف التوجه إلى ضرب معاقل الشرك والتمكين لحضارة التوحيد (. . .) ومايهمنا الآن هو أن نسترجع هذا الصمود التاريخي المسلم حتى نستعيد ذواتنا المفقودة (. .) وحتى نتعالى على منطق الهروب اليائس من

شتى المواجهات في شتى المجالات(١٣) .

●●●

لقد ظهر شباب الصحابة رضي الله عنهم وإمام الدعوة عليه الصلاة والسلام في عصر كان العرب فيه في وضع بائس هزيل بالنسبة لقوتي الروم والفرس الغالبتين على حضارة العصر . ولم يكن العرب من الحضارة البشرية المبدعة المتفوقة في قليل ولا كثير ، بل كان الروم يكلون أمرهم إلى الغساسنة وكان الفرس يكلون أمرهم إلى المناذرة ، فكان العرب أتباع لحاميتين عميلتين للدولتين الكبيرتين ، ولم يكن لهؤلاء العرب نصيب - ولو أدنى نصيب - في ساحة السباق العسكري والحضاري في عالم القرن السابع الميلادي .

وعندما ظهر الإسلام كان الصحابة في مكة وفي المدينة يعون حجمهم الطبيعي ، ويدركون أنهم بالمقاييس المادية لن يستطيعوا احراز أيّ نصر ، ولا تغيير المعادلات الدولية الحاكمة .

لكنهم كانوا يملكون شيئاً واحداً ثابتاً لم يتزعزع هو إيمانهم المطلق بأن الله أقدر من الروم ومن الفرس ومن الغساسنة والمناذرة . . . هذا الإيمان المطلق المشبع ثقة بأن الأمر كله بيد الله ، وان الله لو شاء لخسف الأرض بالروم أو الفرس ، ولجعل الأقلية المؤمنة الضعيفة التي لا تساوي شيئاً بالميزان المادي تنتصر على الأكثرية القوية المستكبرة الطاغية المتفوقة عسكرياً وحضارياً . . .

هذا الإيمان قد يلوكه أي مسلم الآن ، بل إننا لو سألنا بعض من ينسحق إيمانهم أمام القوة الأجنبية ويظنونها القوة المطلقة التي لم تقهر إلى يوم القيامة . . . وكأنها نهاية التاريخ ، وكأنها ستفلت من كلمة الله

(١٣) د . محمد أحمد العزب : حتى نهزم اليأس في واقعنا المسلم : مجلة الأمة القطرية عدد ٧٠ شوال ١٤٠٦هـ .

وسننه القاهرة . . ولو أنك سألت واحداً من هؤلاء المحسوبين على الإسلام هل تؤمن بقدرة الله تعالى : إنني أؤمن بأن الله قادر على كل شيء !!

لكنك لو قلت له : إن هذا الكلام الذي تقوله بلسانك يجب أن يكون منهاج حياتك ، وطريق سياستك ، وأسلوب تعاملك مع التحديات الخارجية . . . تماماً مثلما فعل الصحابة والتابعون . . . لو طالبته بذلك وأمرته بالصبر على المبادىء وعدم التفريط فيها خوفاً من قوة الظلم المسيطرة وثقة في الله لرفض الاستجابة لك ورماك بالمثالية . . .

. . . إنه لا يقول إلا كلاماً لا يجاوز الحناجر . . وهو في حقيقة أعماقه ليس مؤمناً ، بل إن إيمانه بقوة أمريكا أقوى من إيمانه بقوة الله (جل جلاله) . . .

- لقد كان رئيس عربي في بعض الأحوال يقول : إن أوراق اللعبة كلها في يد الدولة الفلانية . . !! وقبله كان صحافي عربي كبير يقول هذا أيضاً . . . !!

- فماذا بقي لله ؟ وماذا بقي للمليار مسلم وللمئتي مليون عربي ؟

- ومع ذلك فعندما انطلق جنود مسلمون في عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) رافعين شعار «الله أكبر» محطمين اليأس - حققوا الكثير ، وكان من الممكن أن يحققوا الكثير جداً !!

إن هذا هو التحدي الذي يجب أن يواجه شباب اليوم كما واجه شباب الصحابة في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويجب أن يواجهوه في ضوء استيعابهم لكتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ، وتجربة الصحابة رضي الله عنهم !!

ومهما عتا الجبارون - وخنع عبيد الدنيا ، واستسلم المنهزمون في

أعماقهم ، المتفلتون من أعباء دينهم ، الموالون لأعداء الله ، فيجب أن يبقى شباب الإسلام - مثل شباب الصحابة - بعيدين عن كل يأس .

- **﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾**(١٤) . . . !!

- فكيف ييأس المسلم والمعادلة عنده واضحة :

إن (الله أكبر) من كل كبير واعظم من كل عظمة الكون . . . فكيف بالأرض الهزيلة ، فكيف بأمريكا . . إنه قدير . . إن الدنيا كلها لا تساوي جناح بعوضة عند الله . . فما نسبة أمريكا في جناح البعوضة ، وماقيمة البعوضة عند العظيم الذي ستكون الأرض كلها منذ كانت وحتى البعث **﴿قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه﴾**(١٥) . كطي السجل للكتب . . . أجل : إنها حقيقة القدرة الإلهية : **﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ، ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**(١٦) . . وهي حقيقة القدرة الإلهية التي تربط لنا بين وعديها اللذين لايتخلفان . . وعد طي السماء ، وقبض الأرض ، ووعد ميراث الأرض لعباده الصالحين . . . !! فعلام اليأس إذن ؟

وهل يجوز لمسلم مع هذا الوعد أن ييأس ، ويظن بالله الظنون ،

---

(١٤) آل عمران ١٧١ - ١٧٥ .   (١٥) الزمر ٦٧ .   (١٦) الأنبياء ١٠٤ - ١٠٥ .

ويكبر أمريكا في نفسه أكبر مما يكبر الله - مع أن هذا المسلم يكرر في كل يوم عشرات المرات : (الله أكبر) ؟!!

- ومامعنى «الله أكبر» إذن مادامت لأمريكا في العقول والقلوب والخطط والسياسات هذه الرهبة!!

- لقد سحق الإسلام اليهود عندما كانوا في تلك الحالة من الهزيمة الأخلاقية والفكرية التي صورها الله في كتابه بقوله : **﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾**!!

- وها هو التاريخ يعيد نفسه ، فيصبح بعض المسلمين في مكان اليهود . . كما كان بعضهم كذلك أيام التتار؟!!

- إن مسؤولية الشباب المسلم أن يعيد الميزان إلى نصابه ، وأن يثق في قدرة الله ثقة مطلقة ، ويؤمن بأن ما أصابنا إنما هو من عند أنفسنا ، وأن الله ماسلط علينا هؤلاء الكفار الفجرة وأعوانهم إلا بما كسبت أيدينا ، وعلينا أن نبدأ خطوات الإصلاح بثقة في الله ووعده ، ومن النقطة نفسها التي حددها الله لنا :

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ !!

- فلماذا لا ينظر الشباب المسلم فيما حوله وفيمن حوله ،ثم يتساءل: هل هذه المجتمعات المسماة إسلامية تستحق نصر الله؟

- ألا يجد العُرس الفاحش والسينمات والمسارح تعج بها الشوارع الكبرى في مدن المسلمين؟

- ألا يجد الخمور تباع بعض في العواصم الإسلامية بحجة السياحة؟!

- ألا يجد كثيراً من المؤمنين يضطهدون باسم مقاومة التطرف؟

- ألا يجد صحفاً (اسلامية!!) تسميهم أصوليين مثل اليهود

والنصارى؟!!

- ألا يجد الربا هو نسيج الاقتصاد في بعض بلاد الإسلام ؟

- فلمن يمنح الله نصره في هذه الدنيا ؟

- ولينظر الشباب المسلم حوله - إذا كان مسلماً حقاً ومنصفاً - وليتساءل - بدلاً من اليأس - : ما النسبة بين هذه المجتمعات الإسلامية في العدل واحترام إنسانية الإنسان والعمل والإتقان ، وبين المجتمعات الكافرة المعاصرة؟ .

وليتساءل من جانب آخر : ما النسبة بين هذه المجتمعات الإسلامية وبين مجتمعات الإسلام الراشدة التي استحقت نصر الله ؟

- والإجابة معروفة ، وهي كفيلة بإزاحة اليأس والثقة في عدل الله ، وبالتالي تفويض الأمر إليه ، والعودة إلى الجهاد في كل المجالات ولا سيما في مجال تغيير الداخل الذي يمهد لعودة المسلمين إلى الله ، وإلى سنن الله في النصر والهزيمة !!

●●●

ليتذكر الشباب المسلم أن المعركة دائماً كانت بين الإسلام وخصومه ذات فارق كبير لصالح الأعداء بالمقاييس المادية ، بل - على العكس - عندما استشعر المسلمون القوة العددية في حنين أصابتهم الهزيمة : **﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾**(١٧) وكذلك عندما راهن جمال عبدالناصر على التفوق العددي ضد اسرائيل ، وترك اسرائيل تنمو كيفاً وكماً بجواره وأضاع على المصريين والعرب والمسلمين عقدين من الزمان في

---

(١٧) التوبة ٢٥ .

مهاترات مذهبية يدور فيها الصراع بين التقدميين والرجعيين والاشتراكيين وأعداء الاشتراكية . . . هذا بينما كانت بلاد اليابان وألمانيا وكوريا الجنوبية تمضي - في صمت - في طريق صناعة الحضارة على قدم وساق . . . وكانت اسرائيل تفعل الشيء نفسه وتزيد عليه في الميدان العسكري ! !

وإذا كانت الظروف الآن بعد عمليات استنزاف المال العربي والإمكانات الإسلامية في معارك آثمة بين العراق وإيران تارة وبين الأولى والكويت والسعودية والعالم كله تارة أخرى . . . ثم عمليات تحكم الغرب الصليبي في المال العربي وسطوه عليه بين الحين والحين في عمليات واضحة النهب مثل سوق المناخ الذي خسرت فيه الكويت خلال شهر واحد مائة مليار دولار ، وعملية تخفيض الدولار التي خسر فيها المسلمون عشرات المليارات أيضاً وعملية بنك الإعتماد التجاري الدولي . . . إذا كانت كل هذه الظروف النكداء تجعل الحياة سوداء في نظر الشباب المسلم . . فإن على هذا الشباب أن يدرك أن هذه العمليات نتائج حتمية لمسيرة الولاء للكافرين والثقة فيه . . . بينما يسيء أصحاب المال الظن كل الظن بإخوانهم ويرددون عبارة (رأس المال جبان) كلما جاء ذكر الإستثمار في البلدان الإسلامية التي يحتاج الى استثمار . . . إن هذه الظروف النكداء تحتاج الى دراسة وتحليل لا الى يأس . . . وعندما يتم تحليلها بعمق فربما يخرج الشباب بنتائج تؤكد له ضرورة الثقة في دينه وفي أطروحاته السياسية والإقتصادية .

ألم يرد في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾(١٨). فهل يريد الشباب أن يكذّب الله وان يصبح الأمن في جانب عدوّ الدين الذي يحارب ديننا؟ ! ! ولو فكر الشباب المسلم أيضاً

(١٨) آل عمران آية ٧٣ .

لرفض اليأس ولعلم أن هذه المصائب جزء من حرب الله على الربا والمرابين . . ألم يقل الله في القرآن : **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾**(١٩) . . فهل يريد الشباب المسلم أن يبارك الله في الأموال الربوية التي تستثمر لتنمية بلاد النصارى ؟ .

- أم يريدون أن يكذِّب الله وان ينتج الطيب من الخبيث مع أنهم يدركون ويؤمنون بقول الله تعالى . . **﴿والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾**(٢٠) .

- إننا لا نقوم الآن بتحليل شامل لهذه الظاهرة فلا شك أن دعاة الإشتراكية .والشيوعية والتأميم والمصادرة وقوانين الطوارىء شركاء في الجريمة ، لكن بما أن الخطأ لا يبدر بخطأ ، وبما أن المسؤولية مخصصة وفردية في الإسلام فقد كان لزاماً أن يؤدب الجميع ، وكما أدب الله الدول المحسوبة على الإسلام والتي استوردت الشيوعية والإشتراكية وذاقت الفقر والبؤس والطغيان السياسي فقد كان لزاماً - وفق سنة الله - أن يؤدب المرابون والواثقون في أعداء دينهم مثلما أدب الله الثوريين والإشتراكيين ! !

- إن المحافظة على الصلاة في المساجد جماعة شيء عظيم . . لكنها لا تجعل الربا حلالاً ، ولا السكوت عنه وممالأة مرتكبيه مقبولاً (! !) إن الإسلام عبادات ترشح في معاملات ، وصلة العبادات بالمعاملات ومنهج الحياة صلة الروح بالجسد ! !

- إن الموقف الصحيح الذي يجب أن يقفه الشباب - بدلاً من اليأس - هو أن يحاول فقه سنن الله وأخذ العظة وينطلق إلى مقاومة المناكر والمفاسد التي أدت إلى هذه النتائج الخطيرة ، وعمت أوزارها الأمة كلها ، لأن الأمة بين ساكت عن الحق ومبرر للمفاسد ، ومنشغل بما فيه

(١٩) البقرة آية ٢٧٨ . (٢٠) الأعراف آية ٥٨ .

سلامته ورضاه عن نفسه من الجهاد في الجزئيات والفروع التي لا تؤذي نظاماً ولا تغير مجتمعاً ولا علاقة لها بالجهاد العلمي والفكري والسياسي والحضاري!! وليتذكر الشباب المسلم أن كل المصائب المحيطة بنا لازالت أقل من المصائب التي كانت تحيط بالمسلمين في القرن الماضي ، فلقد كانت بريطانيا وفرنسا تكادان تحتلان العالم الإسلامي كله . . . وكان اليأس من خروج الإستعمار - أيضاً - يخيم على الكثيرين ، وقد كانوا يظنون أن خروج الإستعمار يعني نهاية كل المشاكل . . وما فكروا عملياً في أن التغيير بعد أمن الداخل ، وان تغيير الخارج إذا لم يقم على بناء داخلي للإنسان الفرد عقدي وفكري وبناء للإنسان المجتمع إقتصادي واجتماعي إسلامي سليم فإنه يفقد فعاليته وجدواه في كل وقت . . وهكذا خرج الإستعمار الخارجي وازدادت الأحوال سوءاً . وجاء مسلمون يحكمون ، فكانوا أسوأ من الاستعمار . . لأن البداية الحضارية هي كما قال الله تعالى **﴿إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم﴾**(٢١) وهي الأخذ بكل مؤهلات الحضارة . . وأولها بناء الإنسان . .

- إن على الشباب المسلم أن يفكر في هذا المخطط الذي يدبر لتضييعه وإهدار طاقته وتخريب الأمة !!

وعندما تقع حوادث مؤسفة فإن عليه أن يتذكر المسيرة الماضية التي كان فيها مخدَّراً أو صامتاً ، ثم يربط بين الأسباب والنتائج !!

- إن لله سنناً لا تتخلف ، وكل مايقع في ملكه عدل مطلق قد نبصره وقد نبصر بعضه وقد لا نبصره!!

- لقد كان المسلمون ينطلقون من مقياس الداخل وميزانه ، ولا يهمهم الخارج . . فمهما كانت كثرة عددهم فلم يكن يزعجهم إلا

---

(٢١) الرعد آية ١١ .

ذنوبهم واحتمال غضب الله عليهم وكان يؤرقهم كل الأرق أن يكونوا على خطأ في أمرها ، وان تكون عناية الله قد تخلت عنهم تأديباً لهم لمخالفته .. أليس الله هو القائل : ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾(٢٢) .. وهذا هو الذي كان الاسلاف يحذرونه ،ولا يأبهون بغيره حتى كأنهم ليسوا من البشر ، أو كأنهم من حديد والعدو من طين ، أو كأنهم مناجل وعلوج الكفار حقول ومزارع قد أينعت وحان حصادها .. والمنجل بالطبع لا يمكن أن يخاف من الزرع؟!!

قال المؤرخون : لما أقبل خالد من العراق ، قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد ويلك أتخوفني بالروم ؟ إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان لابعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر (فرس خالد) براء من توجيه (إصابة في باطن حافرة) وانهم أضعفوا في العدد ، وكان فرسه قد حفى واشتكى في مجيئه من العراق(٢٣) .

انظر إلى قول ربعي بن عامر في مجلس يزدجرد : لتعرف كيف ارتفع المسلمون عن كل زخارف الدنيا حتى صغرت الدنيا وزخارفها في عيونهم، وهان أهلها عليهم ، فكانوا ينظرون إلى أبهة الملوك والسلاطين ، ومافيها أغنياء الفرس والروم ومترفوها من الأثاث والرياش ، وزخارف الدنيا ، كأنهم ينظرون إلى لعب الصبيان ، أو الدمى والبنات المصنوعة من الورق والقماش ، وبالتالي فما يعظم في عينهم شيء من ذلك .

لقد أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولاً إلى رستم - قائد الجيوش الفارسية وأميرهم - فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي وأظهر اليواقيت واللآلى الثمينة والزينة العظيمة ، وعليه

(٢٢) النور آية ٦٣ .
(٢٣) ابن كثير البداية والنهاية ٧/ ٩ .

تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيف وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ، فقالوا له : ماجاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله ، قالوا : وماموعد الله؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي ، فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم ان تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال : نعم كم أحب إليكم يوماً أو يومين ؟ قال : لا ، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا ، فقال ، ماسن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، فقال : أسيدهم أنت ؟ قال ، لا ، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجيد أدناهم على اعلاهم ، فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟! فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويلكم لاتنظروا إلى الثياب وانظروا إلى الرأى والكلام والسيرة ، وان العرب يستخفون بالثياب والمأكل ويصونون الاحساب(٢٤).

---

(٢٤) البداية والنهاية (ج٧ ص ٣٩ - ٤٠) .

ولما دخل المغيرة بن شعبة على رستم ظل يمشي حتى قعد معه على السرير فنخروا اصحابه وصاحوا ، فقال : إن هذا لم يزدني رفعة ولم ينقص صاحبكم ، فقال رستم : صدق(٢٥) .

وفي هذا الإطار نسوق أيضاً ما روى عن أحمد بن مروان المالكي في المجالسة بسنده عن أبي اسحاق ، ان اصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة أي مدة حلبها عند اللقاء ، فقال هرقل متعجباً مندهشاً - وهو على أنطاكية لما قدمت الروم منهزمة : ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا : بلى ، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا : بل نحن أكثرهم أضعافاً في كل موطن ، قال : فمابالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزني ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، وتغضب ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضي الله ، ونفسد في الأرض فقال : أنت صدقتني(٢٦) .

وسأل هرقل رجلاً كان قد أسر مع المسلمين ، فقال :

أخبرني عن هؤلاء القوم ، فقال أخبرك كأنك تنظر إليهم : هم فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ، لايأكلون في ذمتهم إلا بثمن ، ولايدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه، فقال : لئن صدقتني ليملكني موضع قدمي هاتين(٢٧) .

رضي الله عنهم أجمعين . . !!

---

(٢٥) ابن كثير البداية والنهاية (ج ٧ ص ٤٠) .
(٢٦) ابن كثير البداية والنهاية ج ٧ ص ١٥ .
(٢٧) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ١٥ .

الشباب المسلم ..
وإسلام الدعوة

منذ سقوط الخلافة العثمانية ، وبروز القوة المادية الأوروبية ، وظهور انحطاط المسلمين على هذا النحو المزرىّ . . .

منذ بروز هذه المنعطفات المتزامنة المتواكبة ، والسؤال الحائر يتلجلج في عقول كل المسلمين المخلصين الواعين :

- ما الطريق للخروج من هذا المأزق الحضاري ؟ وما السبيل لتحقيق نهضة إسلامية نواجه بها تحديات العصر ، ونعود بها أمة واحدة في التصورات والوسائل الكبرى والأهداف الثابتة ؟

- وفي غيبة الإسلام الصحيح والفقه وقوانين التطور والنهضة وصناعة الحضارة طرحت حلول كثيرة وتكونت أحزاب أكثر ، تزعم أنها الطريق الصحيح ، وظهر دجالون كثيرون دفع بهم أعداء الأمة إلى القيادة ، فأضلوا الأمة ، وقادوا خطواتها إلى المنحدرات والمهاوي ! !

وفي الوقت نفسه ظهر مخلصون يفتقدون بعض معالم الرؤية ووسائل الوصول إلى الحقيقة وثوابت التصور الإسلامي الديني والحضاري ، فنجحوا في تشخيص بعض الأمراض ، وفشلوا في تشخيص بعضها الآخر وقدموا بعض الحلول الناجمة ، وأخفقوا في تقديم بعض الحلول الأخرى الضرورية .

● والحقيقة ان الإجابة تقتضي من الشباب المسلم أن يواجه نفسه على أساس الفقه الصحيح بطبيعتنا الإسلامية ، ووعينا بالذات المسلمة ومايريده الله من هذه الذات ، ولماذا كنا خير أمة أخرجت للناس ، ومادورنا الذي يريده الله منا في التاريخ ، وما الوسائل التي يسمح لنا الشرع بها لتحقيق مايريده الله منا؟!

لقد كان أولى بكل الذين يعيشون الهمّ الإسلامي المعاصر ، والذين يفكرون في حاضر أو مستقبل هذه الأمة أن يقفوا عند هذا التساؤل الكبير، الذي عن طريقه وحده نستطيع الوصول إلى الإجابة الصحيحة التي تؤدي إلى العلاج الصحيح لهذا المأزق الحضاري الخطير ، بل هذا البئر العميق الذي سقطت فيه الأمة الإسلامية ، ويجب أن تتعاون كل الحبال على إخراجها من البئر قبل الغرق .

- والإجابة كما أراها بالضبط . هي أننا أمة دعوة ولسنا «أمة ثورة»؟؟

- ولم يكن في القرآن قط مايؤكد أننا أمة ثورة بل كل الآيات القرآنية تتواكب مؤكدة أننا أمة دعوة ، مهمتها إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والشهادة على الناس، وإقامة العدل في ساعة الرضا وساعة الغضب على السواء ، واحقاق الحق مع الذين يؤيدوننا ومع الذين يخالفوننا ، حتى ولو على انفسنا ، وتأليف القلوب ، ونشر الرحمة والحب ، والأخذ باللين والرفق والشفقة ، وإيثار ما عند الله على الدنيا الزائلة ، ونصرة المظلوم والوقوف مع المستضعفين في إطار مراتب تغيير المنكر ، وهي المراتب التي تحول دون وقوع مفسدة كبيرة من أجل مصلحة صغيرة أو كبيرة !

- لا أتوقع أن توجد آية في القرآن الكريم تدل على أننا أمة ثورة أو

على أن المنهج الإسلامي منهج ثوري في التغيير ، بل الصحيح أنه منهج يحث على قبول الابتلاء ، والصبر ﴿وبشر الصابرين﴾ . . .

وبدلاً من الحمق والانفعال والثورة . . تأتي الآيات تؤكد منهج الدعوة :

﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ، فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون . يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون ، ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾(١) .

●●●

وليس في سنة الرسول - ﷺ - القولية أو الفعلية أو التقريرية شيءٌ يدل على ان منهجه منهجاً ثورياً أو على أنه ربى أمته أو صحابته على المنهج الثوري بكل ماتقتضيه الثورية من عنف في التغيير ، ومن استهانة بالدماء ، ومن استعجال في سبيل الوصول إلى الغاية ، ومن تجاوز لمراحل التربية والتهذيب والتعليم وغرس بذور الإيمان في التربة الإنسانية .

ومن أجل تحقيق هذا المنهج بكل هذه الوسائل الكريمة التزم عليه الصلاة والسلام ، وهو قدوتنا العليا ، وألزم صحابته وتابعيه ، وهم قدوتنا بعده ، بالحكمة والرفق والصبر على أذى المشركين ، وعلى

---

(١) البقرة ١٥١ - ١٥٧ .

اضطهادهم وتعذيبهم له ولأصحابه ، حتى كان عليه الصلاة والسلام يقبل حوار المشركين ، ويقبل الصلاة في الكعبة وهي محاطة بالأصنام ، ولم يفكر قط في تحطيم الأصنام ؛ لأن اللحظة التاريخية لم تحن بعد ، ولأن الأمة لم تصل إلى المرحلة التي تحمى فيها «الفعل» بعد أن تقوم به ، ولأن الثمار لم تنضج ، ولأن قواعد الدعوة لم ترسخ : فليست العبقرية في القيام بفعل هائج حماسيّ أو «ثوري» تكون نتيجته خسارة كبيرة ، أو دماراً ماحقاً ، أو تحطيماً للمرحلة التي بنيت ، وللعناصر التي تكونت . . . كلا ، وإنما العبقرية الصحيحة أن تقوم بالفعل، بعد أن تملك كل وسائله ، وأن تعبر كل مراحله ، فيأتي الفعل ولادة طبيعية ، مؤهلة للحياة والبقاء والشباب والازدهار! ! وقد عاش الرسول – ﷺ – في مكة ثلاثة عشر عاماً ، يضع الحجارة ويبني الإنسان ، ويرفض الثورة ، ويقول للمظلومين والضحايا «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» .

ويضرب المثل لأصحابه المقهورين المستضعفين بما أصاب المؤمنين السابقين حين كانت تنشر بالمناشير ، وتحمى لهم النيران فيلقون فيها أحياء . . . ويصبرون . . . فإذا ماضاق الأمر بهم من كثرة تعذيب المستكبرين الكافرين أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة ، ليجدوا فيها ملكاً رحيماً بهم ، يعيشون تحت ظلال دولته الآمنة ، التي كانت من الناحية الرسمية تدين بدين آخر لكن كانت تنعم بحكم رجل عادل وهو النجاشي ، فكان العدل هو الذي آثره المسلمون ، وفروا إليه تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم وأولادهم ، ولم يسمح لهم – إطلاقاً – بالثورة ، بينما كان صناديد قريش يعيشون بينهم في مكة ، وكان بإمكان المسلمين ، لو أذن لهم الرسول – أن يكونوا عصابات ثورية تصطاد صناديد الكفر بليل أو نهاره وتجعل مكة – وهي البلد الآمن الحرام – مرتعاً للاغتيالات السياسية ، ومقبرة للمستكبرين ، لكن شيئاً من ذلك لم يقع ! !

– وعندما نجح الرسول – ﷺ – في تكوين دولة المدينة ، وأصبح الرجل الأول فيها ، وأصبح المسلمون القوة الغالبة ، لم يشأ أن يستأصل الكفر ولا ان يعلن ثورة تطهيرية لمجتمع المدينة ، بل عقد المعاهدة المعروفة مع اليهود ، ولولا أنهم غدروا بعهودها ، ونقضوا بنودها لماحاربهم الرسول – ﷺ .

– ومن جانب آخر أقام العلاقة بين المسلمين على الإخاء والحب ، فقامت بين المهاجرين والأنصار أصدق علاقة قامت بين الناس ، فذابت في بوتقتها كل الوشائج القدسية والوطنية ، وأفرزت أرفع الأخلاق في الإيثار والحبّ :

﴿يحبون من هاجر إليهم ، ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾(٢) .

وما أظن مجتمعنا من هذه المجتمعات ، الأيديولوجية أو الثورية قد استطاع أن يصل إلى شيء من هذا المستوى ، بل الشائع الذي أثبتته وقائع التاريخ أن هذه المجتمعات تصفيّ قياداتها بعضها بعضا تصفيةً دموية ، بينما يسود الصراع والأثرة والأحقاد بين طبقاتها .

وقد كان في المدينة منافقون يعلمهم الرسول ، ويعلمهم المسلمون ، وقد كان في الإمكان أن يحرق الرسول عليهم بيوتهم ، أو أن يستأصلهم بالأساليب الثورية ، لكنه رفض ذلك ، وقال كلمته الرائعة «لايقال إن محمداً يقتل أصحابه» ، وآثر الصبر عليهم مع أنهم آذوا المسلمين في مواقف كثيرة .

وعندما عبر الرسول مرحلة «الدفاع» وبدأوا يدخلون مرحلة القوة والتفوق على خصومهم ، بعد أن وصل خصومهم في غزوة الخندق الى

---

(٢) الحشر آية ٩ .

أعلى مايمكن أن تصل إليه قوتهم – فكّر الرسول – ﷺ في أداء العمرة ، وهناك اعترضته قريش ، وكادت الحرب تقوم بين الطرفين ، لكن الرسول – ﷺ – مضى في الإلتزام بمنهجه «منهج الدعوة» ، وقبل صلح الحديبية على مافيه من الشروط المجحفة بالمسلمين – ونزلت سورة الفتح :

﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾(٣) .

والسؤال الجدير بالتأمل هنا :

– كيف ينبثق عن صلح غضب له بعض الصحابة ، وقالوا فيه . أنعطي الدنيّة في ديننا – هذا الفتح المبين ، وهذا النصر العزيز؟

إنها الدعوة ، ومناخها ، وظروفها ، وشروط تقدمها ، وازدهارها ، وهي ظروف وشروط قد تلتقي وقد تفترق مع شروط إقامة الدولة وظروفها ، وهي قد تلتقي ، وقد تفترق عن الاستقلال السياسي ، وعن الهيمنة العسكرية والسياسية – ولما عاد الرسول – ﷺ – وعاش والمسلمون لحظة الانتصار الخالد ، والقوة المرعبة ، حتى بلغ الهلع بأبي سفيان بن حرب أن يقول للعباس بن عبدالمطلب : «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» . . . في هذه اللحظات التاريخية العظمى كان بإمكان الرسول – لو كان قائد ثورة – أن يتذكر شريط المآسي والآلام التي تكبدها هو والمسلمون المستضعفون منذ بدأت الدعوة مرحلتها العلنية في مكة ، حتى الهجرة ، التي خرج فيها مهدداً بالقتل ، ملاحقاً من قريش ، وحتى صلح الحديبية حين لاحقوه في المدينة ، وأحاطوا به في أحد ، وكان هدفهم أن يقتلوه هو أولاً ، وأن يأكلوا من كبد عمه حمزة ثانياً ، كما

(٣) سورة الفتح : الآيات الأولى .

أحاطوا به وبالمسلمين في الخندق إحاطة السوار بالمعصم ، حتى زلزل المسلمون زلزالاً شديداً . . . كان بمكانه أن يتذكر كل ذلك ، وان يثأر لنفسه وصحابته ، وان يستعيد الدور والأموال التي اغتصبها المشركون من المسلمين المهاجرين ، لكنَّ نبي الدعوة - رفض هذا المنهج الثوري ، بل رفض رفع أي شعار ثوري وأقال - على الفور - سعد بن عبادة من قيادة أحد الجيوش الداخلة لمكة لمجرد أنه قال : «اليوم يوم الملحمة» وردّ على سعد بن عبادة عندما قال أيضاً : «اليوم أذل الله قريشاً» فقال عليه الصلاة والسلام : «اليوم أعزّ الله قريشاً» - «اليوم يوم المرحمة» ! !

- ذلك لأن الأمر ليس أمر ثورة تصفي حساباتها مع خصومها ، وتنتقم لما لحق بها من أذى ، وتثأر من المستكبرين الجاحدين ، بل إن الأمر أمر «دعوة» تبيع كل شيء في سبيل الله ، وتنسى كل الذي أصابها في سبيل الله ، وتفتح قلبها من فوق كل الأحقاد والآلام للذين يستظلون معها براية التوحيد ، ويقبلون أن يكونوا عباد الله إخوانا ويتوبون عن ماضيهم ، ويقلعون إلى عالم التوحيد، والإسلام يجب ماقبله!

وصدق رسول الله ، ففي هذا اليوم انتصرت الدعوة بهذا المنهج النبوي الكريم . . . منهج . . . «اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى» . . ولو أن منهج الثورة هو الذي طبقه الرسول لسالت طرقات مكة بالدماء ، ولما انتصرت الدعوة . ولما أصبح عكرمة بن أبي جهل ، وعبدالله بن سعد بن أبي الجراح - اللذان كانا من أعتى بيوت الكفر - قادة من القواد العظام في الفتوحات الإسلامية العظيمة . ! !

●●●

وهكذا يؤكد لنا المصدران الإسلاميان الأساسيان أن الإسلام إسلام دعوة ، وليس إسلام ثورة ، وأن تاريخنا الإسلامي لو أننا قمنا بتشريحه

تشريحاً علمياً ، فسوف نجد أن رصيد الإيجابيات فيه إنما تحقق عن طريق الدعوة ، وان منحنى الهبوط والسلبيات والمعارك الدامية ، والأموال الضائعة ، والطاقات المنهكة والمهدرة ، إنما جاءت عن طريق الثورة ، حتى ولو تقمَّصت هذه الثورة رداء الإسلام ، وزعمت عن طريق أنهار الدماء وأكوام الجماجم البشرية أنها جاءت ترفع اسم الله وتحقق الإصلاح الإسلامي والنهضة الإسلامية . . .

فالثورة كانت إهداراً دائماً ، والدعوة كانت نصراً دائماً، والثورة كانت عملاً سياسياً انفعالياً موقوتاً ، والدعوة كانت عملاً حضارياً دائماً والثورة كانت قفزاً من فوق السنن الكونية والإجتماعية . . والدعوة كانت ولادة طبيعية .

وبينما كانت الثورة مشوبة دائماً بالمطامع الشخصية ، بالرغبة في الحكم ، وباستعمال الوسائل غير الكريمة ، وبتصفية الخصومات ، وتبادل الأحقاد ، فإن الدعوة كانت عملاً خالصاً لله ، يتنزه أصحابها عن كل رغائب الدنيا وشهوات الذات ، ويرتفعون فوق مستوى الأهواء الشخصية والغايات الدنيوية .



فلما جاء العصر الحديث ، وبدأ السؤال الكبير يطرح نفسه أمام الوضعية السيئة التي سقط فيها المسلمون من تمزقهم السياسي والفكري ومن هبوط مستواهم الحضاري ، ومن تفوق عدوهم في المستوى التكنولوجي والمادي والتنظيمي والعقلي :

– ما الطريق لتحقيق نهضة إسلامية معاصرة؟

وحتى اليوم فإن الإجابة التي طرحت عملياً تميل إلى الحل القاتل . . . حلّ الثورة ، وترفض الحل الحضاري البناء المنسجم مع دور

الأمة الإسلامية وطبيعتها وهو حل الدعوة .

وحتى اليوم لازال الأمل معقوداً عند الكثيرين على مجرد القفز فوق الحكم ، على مجرد الصراع مع السلطة السياسية ، ومع الاستعمار الأجنبي ، ومع بعض المسلمين الآخرين الذين يختلفون معنا في بعض الفروع والحزبيات ، وقليلاً ماينظر المسلمون إلى أمراضهم فيما بينهم ولا إلى عجزهم عن الإرتفاع إلى مستوى الإسلام ولا إهمال لواجب الدعوة الذي من شأنه أن يوجب عليهم أن يكونوا في مستوى اقتصادي وتكنولوجي وثقافي وتنظيمي وأخلاقي يتفوق على مستوى عصرهم ، ويقدم صورة للمسلمين تشرف الإسلام وتجعل الناس يفكرون في قبوله ، وفي معرفة حقائقه التي صنعت هذه الأمة العظيمة يوماً ما أو المفترض أن تكون عظيمة!!

●●●

لقد فهم اليابانيون بعد هزيمتهم ، وإعلان إمبراطورهم «هيروهيتو» الإستسلام في الخامس عشر من أغسطس ١٩٤٥م . . . لقد فهموا المعادلة الحضارية (الدنيوية) السليمة ، وهي معادلة يقرّ الإسلام جوانب كثيرة منها ، ولا سيما مايتعلق بجوانب العلم والعمل والإتقان والإبداع والروح الجماعية ، وإيثار مصلحة الأمة على الدولة ، والدولة على الحزب ، والحزب على الزعامة الشخصية .

إن الطالب الياباني ينتحر إذا لم يحقق الدرجة العلمية التي ينشدها ، وديننا يرفض الإنتحار ، لكنه يأمر بإتقان العمل ، وبالمحاسبة على كل دقيقة وساعة من العمر .

وإن العامل الياباني لينتمي إلى المصنع . كما ينتمي تماماً إلى أسرته أو وطنه ، ويرفض حقه في الحصول على الاجازات الرسمية .

- وفي أفغانستان ، قبل فريق من أبنائها بيعها للشيوعيين السوفييت من أجل الحصول على السلطة ، لولا أن تغمد الله المجاهدين برحمته وأسقط الشيوعية كلها في بلادها الأم .

- وأما في الصومال فقد ظلّ سياد بري يحكم عشرين عاماً . وهو يعلم أنه مكروه من شعبه ، وقد ظل يراوغ كالثعلب . ويقف ذليلاً على أبواب العواصم الشرقية ، حتى رفضت استقباله . ولم يجد له موقعاً في العواصم الغربية . فازدهرت المعارضة ضده ، وظل يقاتل ويقتل ويهدر دماء الشعب الصومالي المسلم ، ولم يذهب هارباً من الصومال إلا تحت ضغط المطاردة والتهديد بالموت بعد أن خلف من المصائب على بلده المسكين مايصعب حصره .

وفي العراق تأتي ثالثة الأثافي ومصيبة المصائب - حيث يقبض رجل واحد هو « صدام حسين» على كل مقدرات العراق منذ قرابة ربع قرن ، فيقتل لأتفه الأسباب ، بل بدون أسباب . ويشرد مليوناً ونصف مليون من أبناء شعبه في عواصم أوروبا ، ويدخل مغامرة عسكرية تستمر ثماني سنوات ضد إيران ، ويرغم جيرانه العرب على الدخول معه ، ويبدد أكثر من خمسمائة مليار دولار ومليون قتيل وجريح في هذه المغامرة الطائشة المجنونة ، ويعتدي على بعض شعبه في العراق . وهم الأكراد ، بالأسلحة الكيماوية .

ثم يدخل في مغامرة الكويت ، وفي تحدي العالم كله ، وفي مواجهة ثمان وعشرين دولة ، وهو يعلم أنه سيدمر العراق كلها ، لكن الطاغية يحسبه بعضهم - هداهم الله - على الإسلام ، لا يهمه كل ذلك ، وإنما يهمه غروره وصلفه بعيداً عن مقاييس الدين والأخلاق ، وحتى عن المبادىء الإنسانية العامة والعقلية المصلحية .

وليس يهمنا أمر هذه النماذج إلا بمقدار مانستنبطه منها من دلالة على عقم الأسلوب الثوري ، الذي يركن إلى الفلسفة المصلحية ، وإلى تحليل الأمور بعيداً عن فقه الدعوة وعن الواجب الإسلامي الأعلى وعن الثوابت الإسلامية التي أكدها القرآن وأكدتها صفة الرسول ﷺ القولية والفعلية .

إن ديننا دين «الدعوة» في الوسائل والغايات في الباطن والظاهر في إطار الفرد والمجتمع والدولة والأمة .

ولن يستقيم أمر هذه الأمة في التاريخ ولن تصنع حضارة إلا إذا تركت منهج الثورة الذي يروج له خصومها بين أبنائها ، فقد ثبت أنهم وراء الإنقلابات السياسية والعسكرية ، لما تحققه من إهدار للطاقات واستهانة بالدماء وقضاء على الأمن . . . ومن العجب بعد ذلك أن يظن بعض المسلمين في هذا الأسلوب خيراً ، وان يقفوا وراء بعض دعاته الذين يغلفونه برداء الإسلام ، وليس في الإسلام ثورة ، بل الإسلام دعوة .

- ولو قمنا بعملية إحصائية وحسابية للطاقات التي أهدرها منهج الثورة لأدركنا - حتى من باب المصلحة والتجربة - أنه أسلوب عقيم لا يرضاه إسلام دعوة : ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين﴾(٤) . ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾(٥) .

●●●

هذا هو توجيه الله في كتابه الكريم . . . وهو - أيضاً - درس التاريخ وتجربة أسلافنا رضي الله عنهم .

(٤) سورة الكافرون . (٥) سورة آل عمران ١٥٩ .



الشباب المسلم والحركات السياسية الإسلامية المعاصرة

من حقنا أن نشير إلى أن كل الحركات التي حاولت تجاهل الإسلام أو التنكر له أو خفض رايته وإعلاء رايات أخرى وطنية أو قومية أو حزبية كانت حركات مشبوهة تنتمي إلى خارج الأمة ، ولم تنبثق من داخلها . . . فالتراب الإسلامي والبيئة الإسلامية من طنجة إلى جاكرتا تتنفس الإسلام وتعيش حياة اجتماعية وروحية وفكرية حتى ولو انحرفت عن تعاليمه في التطبيق في جانب من الجوانب ، أو وقع الانحراف في شريحة من الشرائح . . فوقية هذه الشريحة أو تحتية!! وخلال الأربعة عشر قرناً المنصرمة من عمر الإسلام في التاريخ كان الإسلام العقيدة والأخلاق والحضارة - قادراً دائماً على مواجهة التحديات والواقع ، وعلى إنبات المصلحين الذين يتعهدون الأرض والإنسان بالدواء والإفاقة ، حتى يتمكن من الإنتصار على عوامل الهزيمة الطارئة ، والإقلاع من جديد بمفاهيم أصيلة جديدة ، تحيى الثوابت وتزيل عنها تراكمات التاريخ ، وتهضم الجديد الذي يفرضه تطور الزمان ، وتطور العقل في الزمان!!

وعلى العكس من حركة التاريخ الأوربي كان جميع المصلحين المخلصين في تاريخ الإسلام من علماء الإسلام ودعاته ومفكريه ، بل

وعاشقيه - ولم يقع قط ان وجد مجدد مسلم ملتزم جاد ان الإسلام يكبل حركته ، أو يدفعه إلى الإستسلام للعوامل الطارئة أو للجمود . . .

- ولم لا ؟

- أليس الإسلام حضارة خاتمة تملك الصلاحية الدائمة لمواجهة كل تطور في العقل والزمان ! !

- إنه لم يكن يوماً حبيس معبد ، أو حبيس فكرة مظلمة تبغضه في الدنيا ، وفي رسائل بقائها من زواج أو تجارة أو زراعة أو صناعة ، أو علم أو عمل نافع تتوافر له الصلاحية والصلاح . .

- فلم لا ينطلق المجدد المسلم من دينه إذن؟ !

- ولماذا لا تعتدل المعادلة في وعيه فيكسب الدنيا والآخرة معاً؟ !

- ولماذا ينشق على دينه وهذه طبيعته؟ !

وهل هناك داع ليكون المسلم وطنياً غيوراً على وطنه ، وعلى بني وطنه ، أن يتنكر للإسلام ويعلي راية الوطنية على رايته؟

- ولماذا لا يكسب الاثنين معاً ، ويفوز بالدنيا والآخرة ، ويجعل من جهاده لإصلاح وطنه بعض الأرض التي تخفق راية الإسلام فوقها؟ !

- أليست حماية هذه الأرض حمايةً لبعض أرض الإسلام؟ !

- ولماذا يجعل القوميّ قومه نداً للإسلام ؟ أليسوا بعض أقوام المسلمين؟ فلماذا يعارض الجزء الكل؟ وهل في الإسلام مايبغض في الأقوام ، وهو الدين الذي يأمر بحماية الأرحام ورعايتهم ، ويجعل صلتهم من أفضل القربات إلى الله؟ !

ولماذا لا يكون ولاؤنا لأقوامنا بتربيتهم وبإيقافهم عند حدود العدل وبالأخذ على أيديهم؛ حتى يسيروا مستقيمين مبصرين فوق القضبان

الصحيحة؟

- ولماذا يكون التعصب لقومنا أعمى ، في الحق ، وفي الباطل على سواء؟!

- ولماذا لا نجعل الوقوف مع قومنا والأخذ بأيديهم أمراً من أمور الإسلام ، وجزءاً من مجموع الأجزاء الواجبة ، وثغرة من الثغور التي تجاهد فيها دون أن نفتعل بينها وبين الإسلام عداءً لا أصل له . . . ولماذا لا نفوز بالإسلام والرحم معاً ، وتمزج بين أرحامنا وإسلامنا وبين بقية الثغور الإسلامية؟!

- إن الضمير المسلم والوعي الإسلامي كانا منسجمين تماماً مع الحقيقة الإسلامية ومفردات الولاء الأخرى ، ولم يقع قط إلا في مراحل الهوان والتخلف ، ومن قبيل الشذوذ والإنحراف - ان وجد الإنسان المسلم نفسه مسوقاً إلى خيارات فاصلة بين وطنه وقومه ودينه . . .

- والخصيصة الكبرى للقيم الإسلامية أنَّ منظومتها تجمع بين مفردات كثير من العناصر التي تبدو لدى بعض الأيديولوجيات متعارضة، بينما هي من منظومة القيم الإسلامية ذات ترتيب محدَّد ، ونسب محددة ، وهي - في محصلتها الأخيرة - متفاعلة ومتكاملة ومنسجمة!!

●●●

ومن هنا كان إفرازاً غير طبيعي ، وكان نبتاً لا يتساوق مع التراب الإسلامي ، بل كان استجلاباً لثمار ليس لها جذور ، ولا تسمح التربة بإنباتها . . . كان كل ذلك هو التعبير الصحيح عن ذلك النقل الحرفي للدعوات الوطنية والقومية التي ظهرت ، بل وسيطرت فكرياً وعملياً ، لبعض الوقت ، في عالمنا العربي والإسلامي .

- من المؤسف أن تأتي هذه الدعوات بكل مفاهيمها اللا إسلامية. التي تنسجم مع التربة التي أفرزتها والتي قامت بتصديرها ، بل وبالوقوف وراء دعاتها بالتشجيع والإبراز وشتى وسائل التمكن والدعاية.. تأتي وتنتشر وتحكم دولاً وكأن هؤلاء المسلمين بالجنس والوراثة الذين نقلوا إلينا هذه المذاهب قد فرّغوا تماماً من المعرفة بالإسلام ، بل قدم لهم إسلام مشوّه نسج من بعض عصور التخلف ، ومن بعض سلوكيات الأفراد الشاذين حكاماً كانوا أو محكومين . . .

ولم يحاول قط هؤلاء الذين تعاقد الإستعمار وكنيسته معهم لغرس هذه الأفكار في التربية الإسلامية أن يعرفوا الإسلام .

من أصوله ، ولا من خلال منظور محايد يضع القيم في إطارها البشري وفي مسيرتها العامة وفي تعبيراتها الصحيحة السائدة . وماينطبق على الدعوات العنصرية الوطنية والقومية التي تمّ مذهبتها وتكييفها ايديولوجيا لتصبح بديلاً للإسلام . . . ماينطبق على هذه الدعوات ينطبق كذلك على المذهبيات المادية والفردية الأخرى التي انتشرت على الساحة العربية والإسلامية خلال القرن الرابع عشر المنصرم من الهجرة (العشرين للميلاد) . . . ولم تسقط في عالمنا العربي إلا مع سقوطها في العالم كله ، وإن كان من الحق أن نسجل - تاريخياً - ان العالم الإسلامي بصفة إجمالية صمد في وجه هذه المذهبيات كما لم يصمد العالم النصراني والعالم الوثني ، بل كان صمود المسلمين في أي بلد شيوعي أو اشتراكي أو قومي أقوى من صمود الطوائف الأخرى التي تعيش في البلد نفسه ، وذلك على الرغم من الضغوط الكثيفة التي كانت توجه إليهم بصفة خاصة!!

●●●

كانت الحركات الإسلامية - إذن - هي التعبير الصحيح عن التربية

الإسلامية ، وعن الفطرة ، وعن التاريخ ، ووعائه الحضاري ، ولم تكن هذه الحركات بالنسبة للعالم الإسلامي «إحدى الحركات الفكرية والسياسية الهامة والمؤثرة» كما أنها لم تكن «أهم التوجهات المؤثرة في المجتمع العربي والإسلامي» إلا من باب التجوز في التعبير ، فالمقارنة بين الصحيح والزيف والطبيعي والصناعي مقارنة نظرية وفكرية ، لكن طريقيهما مختلفان أهميةً ، ومختلفان تأثيراً ، ومختلفان إنتماءً وولاءً ونتائج !! ولئن درج بعض المنظرين إلى طرح الإقلاع الإسلامي الحضاري هذا الطرح النظري الذي يتعامل مع المشروع الحضاري الإسلامي بمنظور أو «كاميرا» (مصغرة) ومع المشروعات الأخرى اللامنتمية بمنظور أو «كاميرا» (مكبرة) فإننا – من رؤيتنا الحضارية الإسلامية - نتحفظ على هؤلاء المنظرين ، ونؤمن بأن الإقلاع الحضاري الإسلامي هو الطريق الذي لا طريق سواه ، وان الطرق الأخرى إنما تساق لتبديد الطاقة وصرف الأبصار عن الطريق الصحيح ، وتأخير الإقلاع أطول فترة ممكنة . . . فهي – إذن – ليست طرقاً أخرى ، وإنما هي محاولات تضليل عن الطريق الصحيح الذي يجمع كل أبعاد المعادلة الحضارية ، ويقدم البديل الحضاري ، لا للعرب ولا للمسلمين وحدهم ، وإنما للبشرية التائهة والمخدوعة كلها . . .

●●●

وكان أول خطأ وقعت فيه الشرائح التي تصدرت الأمة فكراً وتنظيماً من خلال عدد من التنظيمات والإجتهادات أنها نسيت حقيقتها ، ولم تفهم طبيعة دورها ، وقد نجح خصومها المزودون «بتكتيك» الغرب ومخططاته في أن يجعلوها تبدو في موقع ردّ الفعل أو الحلّ في الأزمات الكبيرة . . . ودائماً يكون لردّ الفعل الحادّ نسبة الخطأ التي يقع فيها الفعل

المضاد . . . وكما لا يجوز للمعلم ولا للطبيب ولا للوالد المربي أن يكون ردّ فعله مساوياً للفعل الذي يقع فيه التلميذ أو المريض أو الإبن ، فكذلك كان من الواجب على العاملين في الحركات الإسلامية أن لايستفزوا إلى معارك آنيّة ، وإلى خصومات مرحلية ، وأن يفقهوا - من خلال وعي وتربية كاملين - أن بناء المشروع الحضاري الإسلامي ، والإقلاع بالأمة من الوجهة الحضارية التي تردت فيها بعوامل من داخلها واستغلال من خصومها - أمران ليسا من السهولة بمكان ، ولا يصلح معهما محاولات القفز السياسي أو الاقتصادي دون توطئة وتمهيد ، ودون رعاية كافية للبذور ، وتقليل بقدر الطاقة من الأعشاب الضارة التي يغرسها الخصوم الأقوياء المزودون بعلوم التخطيط والانتربولوجيا والحضارة والسياسية والإعلام!!

- إن معرفة الماهية والرسالة والأهداف معرفة ضرورية وأساسية لمن يريدون بناء مشروع حضاري ، وحمل رسالة عظمى تطمح إلى انقاذ الأمة المؤمنة ، لتنقذ بها البشرية التائهة عن حقيقتها ورسالتها الحقة !!

ولم يكن الأمر صعباً على الحركات الإسلامية أن تتعلم ، وان تفقه ، فرصيدها النبوي والراشدي والحضاري الممتدّ ، والنماذج الحضارية البشرية الأخرى ، كلها يمكن أن توضع بين أيديها ، وذلك شريطة أن يكون كل مسلم يريد الإنتماء لهذا المشروع مستعداً أن يتتلمذ ، وان يتلقى ، وان يحاور بالحسنى ، وأن نبقي قلبه وعقله من الإستعلاء الآثم ، والظنون القاتلة ، وآثار العنصريات والطبقيات والأثرة!! وفي الفقه الحضاري القرآني والنبوي زاد وفير لمن أراد أن يذكر وان ينسجم من سنن الله في التغيير وبناء النفوس والعقول والحضارات !!

لكن بعض المنتسبين إلى هذه الحركات ظنوا لبعدهم عن الفقه الحضاري ، وعن الإدراك الصحيح لطبيعة رسالتهم ، وان الإقلاع

الحضاري يشبه إقلاع الطائرة ، وان الإنسان يشبه «الكمبيوتر» وهو وهم كبير أدى إلى كثير من الانتكاسات ، وسالت بسببه كثير من الدماء ، وأهدرت كثير من الطاقات!!

- فالحضارة ليست طائرة ولا مشروعاً إدارياً أو صناعياً ، بل هي تمهيد للتربة ، وتنقية لها ، وغرس للبذور الملائمة ، ورعاية لها وتعهد بالغذاء والماء ، وانتظار صبور للنتائج والثمار الصالحة !!

- والإنسان كائن عاقل حرّ مريد مؤثر ، وليس مجرد حاسوب تملؤه بالمعلومات ليندفع بها في أسرع وقت كلما طلبت منه ذلك!!

ومازالت الحركات الإسلامية - للأسف - لا تريد أن تقف هذه الوقفة المتأنية مع نفسها ، ومع طبيعة البناء الحضاري ، والإمكانات ، والتحديات المحيطة ، والوسائل العملية والميسرة !!

وقد نتج عن هذا الخطأ أن العمل الإسلامي يغلب عليه الفردية والعفوية والعاطفية ، وانّ هذه الحركات الإسلامية لم تحقق نجاحاً ملحوظاً في بناء مؤسسات ثابتة مرتبطة بعموم المجتمع .. وحتى المؤسسات التي نجحت في بنائها كانت تمتد بها ، وكأنها لا تدرك حجم الأعداء المتربصين ، كما أنها - كذلك - استخدمت وسائل قفز أكبر من حجمها وإمكاناتها ، فسقطت في حفر كثيرة ، بل إن بعضها (لبلاهته) كان يضخم نفسه أمام عدوّه الأكبر منه بمراحل ، وكأنه يستعدى هذا العدوّ ، ويحذره منه ، ويناديه بلسان الحال (بل والمقال) ليقضي عليه ، فإنه خطر سوف يقترب منه ويقضي على مصالحه!!

●●●

ومع غياب الرؤية الحضارية ، وما تقتضيها من اناة وصبر وتخطيط وتعميق للجذور في إطار التربية وتعميق الصلة بالله ، واستحداث

البدائل التي تفرض نفسها أدبياً وفنياً وعلمياً . . .

ومع هذا الغياب للرؤية الحضارية حصرت كثير من الحركات نفسها في بعد واحد من أبعاد التغيير وهو البعد السياسي ، بينما حصرت قليل من الحركات نفسها في بعد واحد آخر وهو العمل الفردي ، عن طريق ملاحقة الفرد في سلوكياته الجزئية والفرعية والشكلية والروحية دون أن تتسع الرؤية لقيمتي العلم والعمل اللذين هما من أهم مقومات الإنبعاث الحضاري ! !

وقد عجزت كثير من الحركات عن إدراك الفروق بين مؤهلات الآخرة والدنيا ، فبينما تنتظم مؤهلات الآخرة المؤهلات الدنيوية الصالحة ، فإن المؤهلات الدنيوية قد لا تكون موصوله بمؤهلات الآخرة ، بل قد يفوز فيها الكافر إذا استكمل شروطها ، على أساس أن هذه المؤهلات الدنيوية امتحان مشترك بين كل الناس . . أما الآخرة فهي للمتقين الصالحين وحدهم .

ففي العلم الدنيوي المعاشيّ ، وفي العمل الدنيوي القائم على هذا العلم يتساوى كل الناس أو بالتالي قد ينجح الياباني الوثني أو البوذي أو اللا ديني ويفشل المسلم الذي يلتزم بالشعائر الإسلامية التزاماً ظاهراً ورسمياً . . ! !

لقد أتقن الياباني مؤهلات الدنيا ، بينما خدع المسلم نفسه فظن أنَّ التزامه ببعض شعائر الإسلام تغنيه عن إتقان هذه المؤهلات ، فسقط في حفرة التبعية والاستهلاك ! !

وقد كان من أوجب واجبات الحركات الإسلامية - بلا استثناء - وهي تسعى لبعث الأمة والإقلاع الحضاري أن تجمع في عناق وتآذر وفاعلية متبادلة بين مؤهلات الدنيا وعبادات الإسلام وقواعده المعاملاتية

التي لا تخرج في نهاية مقاصدها الشرعية عن أن تكون وقوداً وتوجيها لمؤهلات الدنيا في مسارها الصحيح ، حتى تحقق للإنسان المسلم - وبه - الحضارة الصحيحة المتميزة والخصوصية!!

●●●

وكان من تداعيات الرؤية المحدودة - غير الحضارية - لكثير من الحركات الإسلامية انها فشلت في التعامل مع النظم السياسية الحاكمة!!

وقد نجحت كثير من النظم الحاكمة - بتوجيه من القوى المضادة الخارجية التي ترفض المشروع الحضاري الإسلامي كله - في ان تستدرج هذه الحركات الإسلامية إلى معارك ليس في طوقها الدخول فيها . !!

- ولأن الحركات الإسلامية لم تبذل جهداً كافياً في مجال إصلاح السياسة الشرعية وتبصير الراعي ومساعديه ، بل اتخذت من الطبقة الحاكمة موقفاً مبدئياً قوامه الرفض والإدانة في غالب الأحيان ، فقد ساءت العلاقة بين الطرفين ، ونجح الأعداء من صليبيين ويهود وعلمانيين في الوقيعة الدائمة بين الحكام والحركات الإسلامية وتخويف النظم الحاكمة من هذه الحركات ، وإشاعة مفاهيم التطرف والعنف والرفض حولها . . كما نجح هؤلاء في إخفاء أهدافهم وجرائمهم ، ولصق كثير منها بهذه الحركات الإسلامية!!

- إننا نعي حجم المكائد الخارجية التي تدبر ضد النهضة ذات الطابع الإسلامي بعامة ، لأنها المشروع الحضاري الوحيد الصحيح ، ولهذا فهي تحظى بأكبر قدر من مكائد الأعداء وتربصاتهم ، بل ومساوماتهم السياسية ، كما أننا نعي أن كثيراً من الحكام - ولا سيما في عصر الهيمنة الإشتراكية - يتلقون تقارير الأعداء ونصائحهم وتدخلاتهم في الشؤون الداخلية بالقبول والرضا والخنوع الذليل ، مع ان ابجديات

العقل الموضوعي تقتضي الشك في نصائحهم وتقاريرهم ، بل إن الكرامة تقتضي رفض هذه التقارير ، وأما الإسلام فيوجب هذا الرفض ، لأن القبول بتوجيهاتهم نوع من الولاء والتبعية والذل والخيانة للإسلام وللأمة الإسلامية . . .

إننا نعي - بوضوح - كل هذا ؛ لكن هذا لا يعفي الحركات الإسلامية من مسؤوليتها في التقصير في هذا الجانب ، فهي لم تبذل جهداً كافياً في تبصير الحكام والاحتكاك بهم وبرجالهم احتكاكاً مباشراً ، بل تركتهم يواجهون تقارير الأعداء وحدهم دون مساعدة على المقاومة ، بل إن بعض الحركات الإسلامية بالغت في هذا الأمر ، فأدانت كل من يتصل بالحكام ، حتى من العلماء الأعلام الثقات ، وجعلت من علامات الإخلاص البعد عن الحكام والمخالفة لهم ، حتى ولو كانوا في موقف ينسجم مع الحقائق الإسلامية ، فكأن مخالفة الحكام أصبح هدفاً في حدّ ذاته ! !

ولو أن الحركات الإسلامية اختلفت وسائلها وأساليبها دون أن يعقب هذا الإختلاف صراع بين بعضها البعض ، وإدانة لبعضها البعض ، وفتن كقطع الليل تقوم على الغيبة والنميمة ، بل ومحاولة الإيذاء والتشويه والتجريح والرمي بأسوأ التهم . . . لو أنها لم تسقط إلى هذا المنحدر في بعض فصائلها بالطبع - لأمكن تحويل هذا الإختلاف إلى مستوى إيجابي تتعاون فيه الإيقاعات المختلفة . . والوسائل المتباينة ، لكن تحقق في النهاية أهدافاً مشتركة ! !

لكن ذلك لم يقع ، بل الذي وقع هو العكس ، فبدون كثير من الطاقات ، ومشى العمل الإسلامي يهدم بعضه بعضه - بسبب سلوكيات بعض الشباب المندفعين وأسباب أخرى . ولولا ثقة كثير من

العاملين للإسلام فيما عند الله ، وفي أنهم على الحق ، وفي أن ضريبة الجنة غالية ، وفي أن البشر لن يغيروا بشراً - ولو اجتمعوا عليه - إلا بإذن الله ، ولن ينفعوه إلا بإذن الله . . . لولا هذا ليئس كثير من العاملين للإسلام من العمل الجماعي والفكري والحضاري - بتأثير إخوانهم أولاً - ولركنوا إلى ظل شجرة وبعض الغنم يعبدون الله وهم مستريحو النفس والضمير، فقد أصبح كل ذي رأى معجباً برأيه ، وساو الجهال وأصبحوا في موقع الفتوى . . . ففي كل مدرسة وقرية وجماعة مفتون . . . يرفضون من خالفهم ويدينونه ويحاربونه . . . !!



الشـــباب المسـلم
ورسالته المعاصرة

إن مهمة الشباب المسلم الأولى في هذه الفترة من التاريخ تتلخص في جهاده من أجل حلّ معادلة التقدم من منظور إسلامي . . .

فلئن كان اليهود قد نجحوا في امتلاك أدوات التقدم في هذا العصر تكنولوجياً واقتصادياً وثقافياً من خلال تمسكهم - وهم على باطل - بالتوراة ، وتبجحهم بتسمية دولتهم باسم نبي الله يعقوب (اسرائيل) وإصرارهم على تسمية الأماكن والأزمان بأسماء التوراة والتاريخ العبري القديم - وإيمانهم ونجاحهم فعلاً في التمكين للغتهم من أن تكون لغة السياسة والطب والإقتصاد والهندسة .

وإذا كان العلماء المنسوبون إلى النصرانية قد فرضوا لغاتهم الإنجليزية والفرنسية والألمانية وجعلوها لغات عالمية ، وفرضوا على العالم صياغتهم العلمانية للحياة ؛ حيث ان الكنيسة قد تصالحت معهم على الاكتفاء بمؤسساتها الكنسية وترك الشارع لهم وفق الشعار المعروف بينهم . . «دع مالله لله ومالقيصر لقيصر» . . .

وإذا كان اليابانيون جادين في الاحتفاظ بشخصياتهم وعقائدهم وصياغتهم للحياة وتقديس امبراطورهم وأسرته الحاكمة ؛ لأنها في اعتقادهم الباطل - من نسل الشمس وجادين في تمسكهم بعاداتهم

وتقاليدهم وبلغتهم اليابانية المعقدة التي جعلوها لغة العلوم والآداب كلها . . .

وإذا كان الهندوس عبدة الأبقار والأشجار والأحجار قد ملكوا الذرة ، وصنعوا سيارة هندية خاصة بهم «إمبسادور» وزرعوا مايكفيهم وتقدموا في زراعات أخرى كثيرة . .

إذا كانت الأجناس المختلفة الراغبة في البقاء كلها قد عرفت طريقها وحلت المعادلة الحضارية وأيقنت أن القيم الدينية والأخلاقية الشخصية، وصياغة الحياة إنسانياً واجتماعياً لا تعارض امتلاك ناصيته التكنولوجيا ، ولا تمنع من الدخول في السباق الحضاري . . .

هذا مع ما هو معروف من وجود مساحة هائلة من الخرافات والأباطيل واللاّ عقلية تسود هذه العقائد يهودية أو نصرانية أو بوذية أو هندوسية . . . وهي مساحة يعرفها عقلاء هذه الملل والنحل ويؤولها بعضهم وهم يعلمون أنهم إنما يخدعون عقولهم بهذا التأويل ، وما في التوراة عن الله وموسى والرسل يستحي أن يكتبه أو يؤمن به شخص عاقل يحتكم إلى المنهجية العلمية والمنطقية . . .

وقل في النصرانية التي ترغم عقول الناس الواقعين تحت ضغطها على أن يجعلوا الثلاثة تساوي واحداً ، والواحد يساوي ثلاثة ، وتدعو الناس إلى أن يشتروا صكوك غفران في الجنة ، وليفعلوا في هذه الدنيا من الموبقات مايشاءون ، والمهم – أيضاً – أن يسفحوا ماء وجوههم وان يعترفوا أمام بشر مثلهم بأخطائهم وسقطاتهم الشخصية!! . . قل في النصرانية الشيء نفسه!!

وأما ما في البوذية والهندوكية من صور الإنحطاط بعقل الإنسان ومكانته فهو كثير لا يحتاج إلى بيان ، فضلاً عن مناقضتها لما للفطرة

وللعقيدة الدينية بصفة عامة!!

●●●

أفلا يجب على الشباب المسلم ، وهو ثروة الإسلام وأمل المسلمين أن يتقدم بدينه الصحيح ، وبثروته من حضارته الإسلامية التي كانت النموذج الذي ترنو إليه الإنسانية ، حيث قدمت للبشرية العقيدة الصحيحة والمنهج السليم للحياة شرعاً وأخلاقاً ، وأظهرت حرصها على العلم وحثها عليه ، وجعله عبادة من أزكى العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى الله . . . ولم يوجد كتاب مقدس بدأ كلماته بقوله سبحانه وتعالى : ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم**﴾ جامعاً في آياته الأولى بين الحث على العلم الإلهي الصادر عن الوحي الكريم ، والعلم البشري المكتسب من (القلم) وجامعاً بين علم الدنيا والآخرة في نسيج واحد ، فكلها - إن صحت النيات والغايات - علوم نافعة يتعبد بها ، وكلها - مع سوء النية والقصد تتحول إلى أدوات هدم وارتزاق!! . . أفلا يجب على الشباب المسلم التقدم بدينه لصناعة حضارة اسلامية معاصرة!

لقد حشد القرآن الكريم مايقرب من خمسين آية في تحريك العقل البشري وانتشاله من وهدة التقليد والتبلد كما حشد عشرات الآيات في إيقاظ الحواس من سمع وبصر ولمس ، وعشرات أخرى في إيقاظ التفكير والتفقه فضلاً عن آيات طلب البرهان والمحبة والجدال بالتي هي أحسن .

بل القرآن الكريم أضاف حقيقة في غاية الأهمية هي أنه أطلق كلمة العلم على الدين(١) ، كأنما يمزج بينهما في مرحلة العصر القرآني مزجاً

(١) عماد الدين خليل - تهافت العلمانية ص ٢٧ طبع بيروت .

لافكاك له ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في القرآن .

يقول الله في القرآن الكريم مخاطباً النبي ﷺ : **﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين﴾** - أي الدين - ويقول الله عن القرآن نفسه : **﴿ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم هدى ورحمة﴾**(٣) ويقول **﴿فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم﴾**(٤) - أي الدين - ؛ فالآيات كلها تفيد أن ماأنزل الله على محمد من دين إنما هو «العلم» وان القرآن مفصل على «علم» كما تبين آية أخرى هي قوله تعالى : **﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله﴾** هذا المزج الذي يتجلى في أوضح صورة في التاريخ الإنساني بين العلم والإيمان .

وحسبنا أن نشير إلى أن كلمة «علم» بتصريفاتها المختلفة قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من سبعمائة وخمسين آية ! ! .

فمن هذا الرصيد ينطلق الشباب المسلم متعبداً لله بالعلم ، وليس موجهاً العلم كما هو هدف الأوربيين وغيرهم إلى استعمار البشرية وإذلالها والعلوّ في الأرض والإفساد فيها . .

ومن التجربة النبوية التي أنزل الله في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة أصولها الفكرية والعقدية ، وقدّم المسلمون في عصور التألق الإسلامي فعاليتها التطبيقية وصياغتها الرائعة للحياة على النحو الذي سردناه من قبل . . .

من هذا الرصيد السماوي ومن هذه التجربة البشرية ينطلق المسلم وهو واثق من أنه أفضل من كل أصحاب الملل والنحل الأخرى لو أنه عرف أسرار قوتهم ، ومنهج تحصيلهم للعلوم واتقانهم للعمل ، والطاقة التي يعملون بها ، وكيف يلتحمون بسنن الله الإجتماعية والكونية وكيف

---

(٢) البقرة ١٤٥ .

(٣) الأعراف ٥٢ .

(٤) آل عمران ٦١ .

يحصلون العلوم بنهم شديد ، ولا يبدِّدون طاقتهم في سفاسف الأمور مع أنهم ينحدرون في أوقات العبث إلى أسفل سافلين .

إن هذه الشعوب المتقدمة تطلب العلم - كما هو معروف - بنهم شديد ، وهي تعطي للبحث العلمي والجامعات أكبر الإهتمام وأعظم الإمكانات وهي تفرِّق - تماماً - بين أوقات الترويح ، وأوقات العمل بينما يخلط بعض الشباب المسلم كل شيء ، وكأن حياته بلا غاية ولا هدف . . .

ولننظر في هذه الإحصائية الخطيرة التي أجريت على نماذج من الشباب المسلم في دراسة أجرتها جامعة أم القرى بمكة المكرمة حرسها الله(٤) :

١ - الذين يصرفون وقتهم ببرامج التلفزيون	٪٥٧
٢ - كرة القدم	٪٥٢
٣ - قراءات ثقافية (جرائد ومجلات)	٪٣٤
٤ - استماع إذاعة	٪٣٢
٥ - التمشي بالسيارات	٪٣٢
٦ - زيارة الأصدقاء	٪٣١
٧ - الرحلات	٪٢٧
٨ - لعب الورق	٪٢٤
٩ - السباحة	٪١٨
١٠ - الكرة الطائرة	٪١٦
١١ - الشطرنج	٪١٤
١٢ - المقاهي	٪١١
١٣ - الموسيقى	٪١١
١٤ - الرسم	٪١٠
١٥ - التمشي في الشوارع بالأقدام	٪٩
١٦ - جمع الطوابع	٪٩

(٤) نقل الدكتور ناصر العمر هذه الأرقام المخيفة في محاضرة له عنوانها : «الثروة المهدرة» بالرياض وعنه نقلها كتاب : للشباب فقط تأليف عادل بن محمد ، نشر دار المنار بالخرج بالسعودية ط١/ ١٤١١ ص١٢ .

لقد ثبت بيقين ومن خلال كل الدراسات التشريعية التي أجريت ، وتجربة المسلمين خلال أربعة عشر قرناً ، ومن المقارنات التي وقعت بين الإسلام والإيديولوجيات الأخرى أدياناً أو نحلاً بشرية . . . ثبت بيقين - من خلال كل ذلك - أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، لكن الأمر يتوقف على وجود شباب ينهض بالأمانة ويتصدى للبعث الحضاري كما تصدى الجيل الأول الذي أقام دولة المدينة . . .

فعندما تهيأ جيل من الشباب ربَّاه الرسول ﷺ - على عينه ، وأصبح جيلاً قرآنياً يفهم سنن الله في التغيير ، ويتلقى القرآن كأنما أنزل عليه ، ويؤمن بأنه مبتعث لإخراج الناس من الظلمات إلى النور مثل إيمان ربعى بن عامر ؛ لأنه جزء أساسي من خير أمة أخرجت للناس .

عندما تهيأ هذا الجيل الذي تخرج من مدرسة النبوة في دار الأرقم بن الأرقم قامت الحضارة الإسلامية ومكن الله المسلمين في الأرض ، فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . . .

إن حاجة المسلمين ماسة اليوم إلى شباب قامت حياته في الأسرة وفي المعهد والكلية على مبادىء الإسلام . .

وقد يتصور بعضهم أن تكوين هذا الشباب في ظل الضغط الإعلامي العالمي ، والظروف السياسية الضاغطة على التربية والتعليم مستحيلة ، وهذا تصور خاطىء . . . فالجيل الذي رباه الرسول في بطحاء مكة وفي المدينة ، والأجيال التي تكونت بعد ذلك في عصور الأمين والعباسين والمماليك والأيوبيين والعثمانيين كانت تحيط بها مؤثرات أقوى منها من جانب أوضاع وحضارات معاصرة . .

وكم رأينا من شباب مسلم يعيش في أوروبا وأمريكا أقوى إيماناً وأكثر التزاماً وأنشط دعوة من شباب مترف مخنث لاهٍ عابث يعيش في

البلدان العربية والإسلامية . . فالمهم أن لا ييأس الشباب ، وأن لا يستهين بأي طريق من طرق الدعوة ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾(٥) .

إن الإسلام يحتاج إلى صفوة مبدعة قادرة على تحريك المواد الخام من البشرية التي تنقاد لكل من يقود . . ورصيد الفطرة يقف مع الإسلام ، ورصيده في المعقولية والمنطقية يدعم أحقيته . . . وأصوله الصحيحة دعامة أخرى من دعامات قيادته وانتشاره .

وأمامنا تجربة الماركسية بكل دلالاتها التي لم يقف عندها المسلمون كما ينبغي . . وها أنذا أقدم بعض الدلالات . .

فالماركسية والإشتراكيون – عليهم لعائن الله – قد نجحوا في إقامة دول كثيرة . . لأنهم ناضلوا وضحوا . . فالعبرة بوجود الرجال . . هذه دلالة أولى . .

ولكن لأن فكرتهم كانت تفتقد لمقومات (الحق) وتقوم على مناقضة الفطرة والحرية والإيمان . . وكلها من أسس الفطرة الإنسانية . . فمع نجاحهم في إقامة دولة شديدة البطش إلا أنهم سرعان ما انهاروا من داخلهم . . فعمر الباطل قصير مهما تظاهر بالجبروت والطغيان ، ومهما استعان بالمنهجية العلمية والحتمية التاريخية والجدلية والديالكتية لتحصين نظمه المخالفة للحق والفطرة . . فهكذا سقطت هذه الأبنية المخالفة للحق والفطرة وتهاوت كأوراق الخريف . . . بينما مرَّ المسلمون بأعتى العواصف وطردوا من الأندلس وصقلية وانكمشوا في الفلبين . . إلا أنهم امتدوا في بقاع أخرى كثيرة . . وهم صامدون بكل قوة حتى اليوم، وقد أفلتوا من كوارث كثيرة كان يظن أنها نهائية ، ومنها كارثة

---

(٥) سورة الزلزلة .

دخول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦هـ . . فالحق والفطرة . . وقبلهما (عناية الله) معنا . . تحرسنا وتوجهنا ، وقد تؤدبنا بالمصائب لنعود إلى التي هي أقوم . . فلا يجوز أن نيأس من رحمة الله ، وان نخاف القوى الشرسة الباقية بعد الشيوعية ، فإن الله يمهلها ويستدرجها ليوم لا ريب فيه . . وتلك سنة الله التي لن تتخلف . . وهذه هي الدلالة الثانية . .

ودلالة ثالثة نقدمها للشباب المسلم من هذا السقوط المدمر للشيوعية . . فإن هذا الجهاد الأفغاني المسلم الضعيف الإمكانات قد أعانه الله فحقق كرامات كثيرة في وجه الطغيان الشيوعي . . وقد زرت المجاهدين في بيشاور ، ودخلت مواقع التزويد بالأسلحة والمؤن . . وأكلت مع قياداتهم . . ويعلم الله ، كم كانت إمكاناتهم بسيطة للغاية ، وكم كانت الأسلحة التي يصنعونها أو يستوردونها ويقاتلون بها بدائية . . ولكن الله أعانهم . . وقد سجل التاريخ أن جهادهم كان سبباً من أقوى الأسباب في سقوط الشيوعية وفي دحر الشيوعيين!!

فقد استنزفوا في هذه الحرب أيما استنزاف أمام مجاهدين يستعذبون الموت في سبيل الله مما كشفهم وساعد على تدمير البنية الأساسية لديهم . . فالأمور لا تقاس بالعدد ولا بالعدة ، ولا بالامكانات المنظورة . . وحسبنا أن نعدّ مانستطيع من قوة يبنيها الشباب ويخترعونها ويصنعونها ويغنون بها الأمة عن الاستيراد . . وعندما نبذل كل الأسباب علمياً وزراعياً وصناعياً وأخلاقياً موجهين كل ذلك لعبادة الله ولرفع راية التوحيد ، فإن الله سيبارك في جهادنا ويغير المعادلات الدولية ، ويفجر البراكين التي تقف عليها الدول العظمى التي تجعل رسالتها الأولى الحرب على الإسلام وإبادة المسلمين . . .

أجل . . . إن الله على كل شيء قدير . . وقد أرانا آية من آياته في

هذا الإندحار السوفيتي . . فلنثق في وعده الحاسم : ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ ، ولنعمل بكل طاقاتنا بالحكمة والموعظة الحسنة مستخدمين كل وسائل الدعوة ولنفوض الأمر لله في تغيير المعادلات الدولية وتمكيننا في الأرض .

ودلالة أخيرة من هذا السقوط الشيوعي تعطينا ثقة كبرى في فكرنا الإسلامي وعظمته . . . وتعطينا الأمل في مستقبل إسلامي مشرق عندما نلتزم بشروط الدعوة وفقه سنن الله!!

فلقد عرف عن الماركسية أنهم - بدلاً من الإيمان بإله حكيم عليم خبير محيط يدبر الكون - آمنوا بقوانين حتمية أضفوا عليها كل صفات الالوهية وأسموها (حركة التاريخ) وجعلوها - كما وهموا - صارمة جازمة لانقص فيها ولا إبرام ، فكأنها قوانين رياضية أو فيزيائية ، وكأن هذا الإنسان وهو يمضي في طريق صناعة الحضارة مجرد آلة لا شعور لها ولا قدرة على الاختيار ، بل هو محكوم بأمر موضوعي حتمي لا يقدر على تبديل وجهته أو تغيير مساره ، أو إيقاف حركته ولو لبعض التوقف . . !

وهؤلاء الماركسيون - بطبيعة الحال - لا يؤمنون بأن (لله الخالق) أيّ تأثير على هذه المسيرة؛ لأنه - عندهم - ليس موجوداً أصلاً - وبالتالي (فالمادة) بطبيعة كيانها الداخلي وتناقضاتها الفاعلة ، وتطور وسائل الإنتاج القائمة على تطور فاعلية المادية . . هي وحدها التي تحكم التطور وتصنعه ، وتصوغ فيه الأفراد والشعوب والحضارات كما تصاغ القوالب الجامدة في الأجهزة التي تقويها . . !!

ومع ذلك فقد فات هؤلاء الماركسيين أن يضعوا ماركسيتهم في هذا القالب - بموضوعية - ليكتشفوا أنها ضد سنن الله في تسيير الحياة وفي استمرار الحضارات وأنها ضد (فطرة الإنسان) بطبيعته الذاتية الحرة

الباحثة عن الإبداع الخاص والتمايز الخاص والملكية الخاصة . . . هذه الفطرة التي ترفض أن تتقولب إلا عن (إيمان) وعن وعي بعدم ذوبان فرديتها أو ضياع ذاتيتها حتى وان انتظمها إطارٌ ما . . . !!

ومع كل الاتهامات التي أشاعها الماركسيون عن خصومهم - بسوء أدب وتعالٍ جهول - إلا أن الفكر الإسلامي - بتواضع مفكريه وعلمهم وأدبهم - قد رصدوا الفكر الماركسي - بأبعاده المادية وأثاره على الإنسانية - بطريقة أرقى نقداً وأعمق علمية - وأقدر على الوضوح والفهم والبعد عن الغموض الذي يستر البضاعة الضحلة ، كما كان الحال عند الماركسيين . . !!

وإننا - في هذا المقام - لا نستطيع أن نرصد العشرات ، بل المئات من الدراسات التي عالجت الماركسية وفنّدت القضايا التي أثارتها والمسلمات الجامدة التي بعثرتها . .

وقد انتهت أكثر هذه الدراسات التي أفرزها الفكر الإسلامي - اعتماداً على وعيه بسنه الله ، وعلى فقهه السليم بفطرة الإنسان وعلى إدراكه لرحلة التاريخ الحضاري للإنسان ، إلى أن هذه الماركسية لابد أن تسقط ، وأنها غير قابلة للبقاء . . !!

بل لقد اعتبرها العلامة مالك بن نبي مرضاً في تاريخ الإنسانية أفرزته الحضارة الغربية المادية والكنيسة اللاعقلانية!!

وكم من كتب إسلامية ظهرت تحمل ذلك المضمون الجريء والذي أصدر به الفكر الإسلامي الهندي الكبير (وحيد الدين خان) منذ عشر سنوات (بالأوردية) وخمس سنوات (بالعربية) كتابه (سقوط الماركسية)(٦)!!

---

(٦) نشر دار الصحوة بالقاهرة .

فحديث الفكر الإسلامي عن (سقوط الماركسية) كان أمراً متداولاً بينما كان أتباعها يصرون على أنها الشوط الأخير للإنسانية!!

لكن أعظم ما كنت أتوقعه من الفكر الإسلامي ومافاق كل توقعاتي هو أن يصل أحد المفكرين المسلمين إلى تحديد التاريخ نفسه الذي سقطت فيه الماركسية على يد (بروسترويكا) و(جلاسنوست) جورباتشوف ؛ بحيث بدا لى (ميخائيل جورباتشوف) وكأنه مجرد رجل فتح باباً كان مغلقاً على جماعة محبوسة في منزل تشتعل فيه النيران . . فسرعان ما تسابق الجميع للهروب من الجحيم!!

إن المفكر الإسلامي الكبير عباس محمود العقاد كان هو هذا المفكر الذي حدّد بالضبط العمر الكامل للشيوعية ، والتاريخ المحدد لسقوطها . . . ففي سنة ١٩٥٧م (أي بعد أربعين سنة من ثورة أكتوبر البلشفية في سنة ١٩١٧م) كتب الأستاذ العقاد عن العمر الباقي للشيوعية هذه السطور الحاسمة . . . قال العقاد :

(وستمضي أربعون سنة أخرى بعد هذه السنين الأربعين التي مضت على وضع الشريعة الماركسية في موضع التنفيذ ، وسيبتعد العالم مسافة أخرى عن أحكام هذه الشريعة كلما خرجت من دور النبوءات والنظريات ودخلت في دور الوقائع والمحسوسات وسيكون ابتعاد العالم عنها في المستقبل أعجل وأسرع من ابتعاده عنها فيما مضى ؛ لأن حماسة الإيمان بها كانت تصمد للحوادث حينما يطيل أجلها على غير طائل ولن يقوى هذا الإيمان المتهافت بعد اليوم على صدمات الحوادث في الداخل والخارج إلا من قبيل تغطية الهارب المهربة إن بقيت به حاجة إلى التغطية بعد انكشاف الأمر وشيوع التفاهم على بطلان المذهب بين دعاته وأدعيائه .

وسيرى غداً لمن يبقى بعد هذا الزمن متعلقاً بحباله الرثة محتجاً به

على نظام من النظم الدينية أو الوضعية فما من نظام سيكون غداً أبعد من النظام الماركسي عن حقائق الأمور وسيبقى من الإسلام عن التمحيص ماكان باقياً قبل ظهور المادية التاريخية وبعد احتجابها ، فيزول المذهب الذي قالوا إنه مذهب العصر والعلم والتقدم إلى المستقبل بغير نهاية ، ويبقى المذهب الذي قالوا إنه قد لحق بأمس الدابر فليس له من الغد نصيب(٧) .

وهكذا – كما ذكر العقاد – لم تكد الأربعون سنة تمضي حتى سقط مذهب العصر والعلم والتقدم . . . وبقي الإسلام الذي قال الماركسيون عنه إنه نظام الأمس الدابر . . بقي ليدخل جولة جديدة . . مع زحف صليبي عالمي جديد قد تطول المعركة معه . . . لكن التاريخ سوف يثبت أن لهذا الإسلام أوفى نصيب من المستقبل . . . لأنه لا يمكن أن يستمر الباطل في حكم الدنيا طويلاً ، أو أن يعيش الناس بالمادة وحدها ، ولا يمكن أن تبقى البشرية من غير دين صحيح قائم على ثوابت صحيحة لا يأتيها الباطل . . دين يحقق إنسانية الإنسان بكل ما تقتضيه من توازنية وشمول وصلة بالخالق العظيم .

●●●

ودلالات الدرس الشيوعي كثيرة تحتاج لكتاب خاص ، لكننا نأخذ منها مايتصل بتوجهنا للشباب . . حتى لا يقع الشباب في ظلام اليأس ، وحتى لا يكلف نفسه فوق ماكلفه . . **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾** . .

وليتذكر الشباب المسلم أن الإسلام كان وراء استقلال كثير من الدول الإسلامية عن الإستعمار . .

---

(٧) انظر كتاب العقاد : الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ – طبع مصر.

لقد انطلق منه وآمن برسالته وجاهد في سبيله الشيخ عبدالحميد بن باديس - رحمه الله - فأعاد إلى الجزائر بجهوده وجهود جمعية العلماء روحها الإسلامية ولغتها العربية بعد أن كانت فرنسا تعدّ الجزائر ولاية فرنسية . . .

وفي ليبيا وقفت السنوسية مواقف كريمة حتى حفظت للشعب الليبي دينه .

وفي الجزيرة العربية كان للشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب دوره الرائد في تحرير العقل المسلم من البدع والخرافات ! !

والشباب الإسلامي مدعوّ اليوم لتوظيف هذا الرصيد كله في الدعوة والتربية والإعلام من أجل مقاومة ضعف الجماهير الإسلامية عقلاً ووجداناً وفعالية حضارية في مجالات احترام الإنسان والوقت والتراب . . وحسبنا في الدلالة على خمول الجماهير المسلمة أن معدل الإنتاجية لديها أدنى معدل في العالم . .

كما أن ميلها للوظائف الحكومية الرتيبة ونفورها من الأعمال الحرة ذات الطابع العملي الجاد من الأدلة على ذلك .

ومشكلة أخرى تتمثل في ضعف بعض العلماء في البلاد الإسلامية وميلهم إلى السهولة والدعة ومجاراتهم الأمور لتقودهم بدل أن يقودوها ، وتلقيهم التوجهات بدل أن يوجهوها ، أو على الأقل يشاركون في توجيهها . . هذه المشكلة تحتاج من الشباب المسلم إلى حوار كبير ، ومعالجة موضوعية ، مع العمل الجاد على إخراج شباب من الدعاة المؤمنين الفاعلين الذين يفعلون مايقولون ، ويعرفون كيف يعالجون الأمور في ضوء سنن الله في التغيير . .

وليس العلماء هنا دعاة الإسلام فحسب ، بل كل المربين علماء على

درجاتهم ، وكل أساتذة الجامعات المحسوبين على الإسلام أيضاً علماء في تخصصاتهم وفي واجبهم الإسلامي العام . . والجامعات الإسلامية حافلة بعشرات الألوف من العلماء . . والأزهر على رأسها ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الجامعة الإسلامية بالمدينة وأم القرى بمكة المكرمة ، والقرويين بفاس بالمغرب ، والزيتونة بتونس ، والأمير عبدالقادر بقسنطينية بالجزائر ، وإسلام أباد الإسلامية العالمية ، فضلاً عن مئات الجامعات في العالم الإسلامي . . .

كل هذه الأطر لو تحركت بفعالية وإيمان ووفق تنسيق محكم يحدث الإنسجام بين الدول وهذه الطاقات الشعبية فإنها - بعون الله - قادرة على شق مجرى حضاري جديد لا تستطيع أية قوة ظالمة في العالم أن تقضي عليه - إنه ليس محضوراً في كيان (دولة) . . إنه (دعوة) تمشي مع الهواء وتتجاوز كل السدود وسمات الدخول . . !!

ويدخل في رسالة الشباب المسلم في عصرنا الحديث ، تحصين المسلم نفسه وذويه بالمعرفة الصحيحة للإسلام مظلوم بجهل كثير من المسلمين بناءه الإيماني المحكم ، ولهذا تثور كثير من المعارك حول أمور فرعية ، وتهمل كثير من أصوله كالعدل ، والشورى ، وحقوق الإنسان ، والواجبات ، والعلم ، والعمل . . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . وكان من نتائج هذا أن انقلبت شعب الإيمان رأساً على عقب في أذهان الكثيرين ، فخنثت محاسن الإسلام وثارت الأحقاد بين المسلمين ، وشوهت صورة الإسلام أمام أعدائه!!

والحقيقة أن المعرفة الصحيحة ببناء الإسلام وهندسته ، والترتيب الصحيح لشعب الإيمان في جانب ، وللكبائر في الجانب المضاد ، من شأنه أن يفسح في مجال الدعوة ، ويضاعف عدد العاملين فيها والمؤمنين

بها وبقدر مايتسع نطاق هذا العمل العظيم تكون ثمار العمل الشبابي الإسلامي أينع وأزكى ، ولهذا فلابد من الصبر على هذا العمل لمدة غير يسيرة حتى يأتي على الدعوة يوم ينضوي تحت لوائها مجموعة كبيرة من المؤمنين بها الذين يحتاج المسلمون إليهم لتشييد صروح البلاد الإسلامية على دعائم النظام الإسلامي(٨) .

وقد يكون الطريق أطول مما يريده الشباب المسلم لكن سيرة الرسول ﷺ وصحابته تعلمنا أن ندعو - صابرين - على أسس سليمه ، وأن ننتظر نصر الله ، وأن لا نتعجل النتائج ، وكم من شباب تعجلوا فدفعوا الثمن غالياً وقدموا لأعداء اةسلام الفرصة التي يريدونها وأساءوا إلى الإسلام من حيث أرادوا خدمته ! !

وكما تعلمنا مسيرة الدعوة في عصورها الزاهرة والرشيدة فإن انتهاج العمل السري لتحقيق الأهداف الإسلامية أمر لا يقبله الإسلام ولا يقره ، ولم يوجد له سوابق في مسيرة الدعوة الإسلامية وكل سوابق العمل السري يتصل بهؤلاء الذين أرادوا إقامة كيانات يحكمونها تسمى (دولاً) وليس لهم غايات إلا الحكم حتى ولو زعموا غير ذلك . . وحتى لو بدت خدمة الإسلام غاية خافتة أو راية ظاهرة في أقوالهم وشعاراتهم ، فإن طبيعة (الدولة) التي تأتي عن هذا الطريق الإنفعالي من شأنها أن تقدم أسوأ نموذج للدعوة الإسلامية ودعاتها ، وكثيراً ماتنحرف عن غايتها . .

وقد كان الشيخ أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - (وهو صاحب تجربة طويلة في العمل الإسلامي في مستوياته الشعبية والرسمية المختلفة) محقاً وهو ينصح الشباب : «ان لا يقوموا بعمل جمعيات سرية لتحقيق الأهداف وان يتحاشوا استخدام العنف والسلام لتغيير

---

(٨) انظر أبوالأعلى المودودي : بين يدي الشباب ص ٨٣ - نشر الدار السعودية ١٤٠٧هـ.

الأوضاع، لأن هذا الطريق أيضاً نوع من الاستعجال الذي لا يجدي بشيء، ومحاولة للوصول إلى الغاية بأقصر طريق . إن هذا الطريق أسوأ عاقبة وأكثر ضرراً من كل صورة أخرى . وإن الإنقلاب الصحيح السليم قد حصل في الماضي ، وسيحصل كذلك - بإذن الله - في المستقبل بعمل علني واضح وضوح الشمس في رابعة النهار .

فعليكم أيها الشباب - كما يدعوكم الشيخ المودودي(٩) وأدعوكم معه ويدعوكم كل فقيه بسنن الله في التغيير وبناء النهضة .

وان تنشروا دعوتكم علناً ، وتقوموا بإصلاح قلوب الناس وعقولهم بأوسع نطاق وتسخروا الناس لغاياتكم المثلى بسلاح من الخلق العذب والشمائل الكريمة والسلوك الحسن والموعظة الحسنة والحكمة البالغة ، وأن تواجهوا كل مايقابلكم من المحن والشدائد مواجهة الأبطال . هذا هو الطريق الذي سيمكننا من عمل انقلاب عميق الجذور ، راسخ الأسس قوي الدعائم كبير النفع في حق هذه الأمة المسكينة ، ومثل هذا الإنقلاب لا يمكن لأى قوة معادية أن تقف في وجهه . وأقول إن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها . أما إذا استعجلتم في الأمر وقمتم بعمل الإنقلاب بوسائل العنف ثم نجحتم في هذا الشأن إلى حد ما فسيكون مثله كمثل الهواء الذي دخل من الباب ليخرج من النافذة .

وهذه هي المعادلة الصحيحة ، والحضارية التي تحدد - وسائل وغايات - رسالة الشباب المسلم ، أحفاد مدرسة الصحابة والتابعين ، في مواجهة ماتطرحه التحديات في العصر الحديث .

---

(٩) المرجع السابق ٨٥ ، ٨٦ .

فهرس الكتاب

الموضوعات **الصفحة**

